

جمال البنا

تعميق حاسة العمل  
في المجتمع الإسلامي

الطبعة الثانية ٢٠٠٤

# المحتويات

• مقدمة

## الفصل الأول

مكانة العمل في الإسلام  
(مصدق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب)

## الفصل الثاني

أخلاقيات العمل  
القربى إلى الله والمبدئية الإسلامية

## الفصل الثالث

علاقات العمل  
وتلاقى الحقوق بالواجبات

## الفصل الرابع

مضمون العمل  
أصل القيمة وشمول الأداء

## الفصل الخامس

مقومات العمل  
النية والصلاحية

## الفصل السادس

حتى لا نفقد الابتسامة

## خاتمة

العمل الوسيلة المثلثى  
اليوم للجهاد في سبيل الله

## مقدمة الطبعة الثانية

كُتِبَ "تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي" عام ١٩٨٥ وصدر باسم الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل الذي كان قد عقد مؤتمره التأسيسي في جنيف عام ١٩٨١. من أجل هذا فإن القارئ يجد إشارات إلى عالم الثمانينات الذي قد لا يلم به من لم يعايشه، وقد أوردنا في بعض فصوله تسجيلات من كتابات نشرت وقتئذ وطواها النسيان، وهذه الإشارات والتسجيلات تعيد إلى الحياة مفاهيم وإحداث وتعرف أبناء القرن الواحد والعشرين ببعض ما كان يحدث منذ عشرين عاماً. كما أن صدوره عن الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل يعرف القارئ بهيئة كان ينتظر أن تكون من أعظم الهيئات تأثيراً في المجتمع العربي والإسلامي لولا أنها جاءت قبل وقتها إذ تضافرت كل القوى لمعارضتها. وكانت المنظمات النقابية التي انضمت إليه من منظمات المعارضة المفلسة، الملاحقة، فلم تستطيع أن تساعد الاتحاد الناشئ إذ كانت هي نفسها أحوج إلى المساعدة، أما النقابات الأخرى فقد ارتبطت بالنظم الحاكمة وسارت في أذيالها، وبالطبع فإنها كانت تقاومه.. ومن هنا فلم يحقق الاتحاد ما عقد عليه من الآمال. وإن كان قد دفعنا إلى المعالجة النظرية لعلاقات العمل من وجهة نظر إسلامية. وقدم الاتحاد تنظيراً جديداً لهذه العلاقات يقف ما بين الرأسمالية المقاومة للنقابات والاشتراكية المستلحقة للنقابات. وكان هذا الكتاب إحدى ثمراته. ونأمل أن تأتي ساعة الاتحاد عندما تسنح الظروف الملائمة، وعندئذ فسيكون له شأن عظيم..

وعندما صدر الكتاب عام ١٩٨٥ كان في ١٤٤ صفحة من القطع الصغير وكان مطبوعاً على ورق "ستانيه" وله غلاف متواضع. ومع هذا فقد أثار الإعجاب، حتى نفدت نسخته بعد مرور أكثر من عشرين عاماً وشغلنا عنه بكتابات ما يكاد ينتهي أحدها حتى يبدأ الثاني حتى وقعت عليه نظر الأستاذة منى عبد الله، وهي سيدة مارونية بالميلاد، مصرية بالجنسية، صعيدية بالزواج. وكان من حسن الحظ أن تعرفت عليها أيام "الفتنة الطائفية" إذ نشرت بعض المقالات في جريدة "الشعب" الواسعة الانتشار لفتت انتباهها عندما كانت بصدد كتابة بحث بالفرنسية عن هذا الموضوع فاتصلت بي، ثم تعارفنا في أحد اجتماعات حزب العمل ومن هذه اللحظة تعاونت معي السيدة منى قلباً وقالباً، وقامت بإعداد "كتالوج" القسم الإنجليزي بالمكتبة بدءاً من تصنيف الكتب وكتابة "البطاقة" على كعبها ثم كتابة الكتالوج بالإنجليزية على الكمبيوتر. وكانت تأتي ثلاث مرات في الأسبوع لإنجاز هذا العمل رغم مشاغلها الجمّة..

كما أصدرت بالفرنسية كتاباً عن جمال البنا وتطور حياته ونشاطه الثقافي، بالإضافة إلى تلخيص واف لكتاب "نحو فقه جديد" بأجزائه الثلاثة.

إنها وزوجها الدكتور محبوب عمر يمثلان العطاء الخالص.. العطاء بلا حدود...

أعجبت السيدة منى عبد الله بالكتاب، وأشرفت على كتابته على الكمبيوتر بنفسها، وشجعتني على إصداره في ثوب قشيب.. وهكذا صدرت هذه الطبعة باسم "دعوة الإحياء الإسلامي" التي تنوب عن الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل في حمل رأيه حتى تحين لحظته.

والله تعالى اسأل أن يفيد به، وأن يسد نقصاً في المكتبة العربية والإسلامية...

وأن يوجه الأنظار لما يجب أن تكون عليه "حاسة العمل في المجتمع الإسلامي"..

القاهرة في: مايو ٢٠٠٤ / ربيع الأول ١٤٢٥

جمال البنا

## إهداء الطبعة الثانية

إلى العزيزة السيدة منى عبد الله

الشمعة التي لا تطفى نورها الرياح...

والتي أعجبت بهذا الكتاب، وأشرفت على كتابته بالكمبيوتر،  
وشجعتني لإصداره..

فإذا أهديت إليها هذه الطبعة فهذا حقها..

جمال البنا

## مقدمة الطبعة الأولى

قد لا نستطيع أن نصل إلى رشاقة التعبير وبراعة التصوير الذي وصل إليه شاعرنا الكبير "شوقي" عندما قال :

**انظر الكون وقل في وصفه      كل هذا أصله من أبوين**  
**فقدنا الجنة في ايجادنا      ونعمنا منهما في جنتين**

ومع هذا فلن نخالف جادة الصواب إذا نظرنا إلى هذا الكون وما يحفل به من بيوت ومصانع وطرق وحدائق ومستشفيات ومساجد ومكتبات ومعاهد وإلى الأنوار التي تشق الظلمات.. والسفن الماخرات البحر كالأعلام والقطارات والطائرات وقلنا "كل هذا أصله من العمل" ..

نعم إن العمل، والعمل الدائب المستمر هو الذي أقام البيوت وشق الطرق وأحال الصحارى القاحلة إلى مدن أهلة ووضع وسائل الانتقال والاتصال من العجلة البدائية إلى الطائرات والكومبيوتر والتليفزيون.. وهو الذي يوفر يوماً بعد يوم للملايين من الناس مآكلهم ومشربهم وما يحتاجون إليه في حلهم وترحالهم عملهم ولهوهم..

إن المجتمع الحديث يختلف اختلافاً جذرياً عن المجتمع القديم البسيط المحدود الاحتياجات، فالثورة الصناعية لم تكن صناعية فحسب وإنما كانت ثورة في حياة الشعوب والجماهير وطرق معيشتها من يقظة الصباح حتى رقدة المساء. و"تمحورت" هذه الثورة حول العمل والصناعة والإنتاج وسارت يدا بيد العلم مع العمل.. وخاضت أوروبا معركة طويلة صعبة من منتصف القرن الثامن عشر حتى الآن لتوجد هذا المجتمع الحديث وتضع وسائل وطرق ونظم وسياق وأسرار العمل التي يقوم عليها هذا المجتمع وتحقق له الكفاية. ومن المحتمل أنها أخطأت ولكن المأخذ في تجربتها جاء على نقيض كل تجارب البشرية السابقة، أنها أنتجت أكثر وأن الوفرة وليست الندرة أصبحت المشكلة وتلك قضية التوزيع وليست قضية الإنتاج وهي - بعد - توضح مدى مقدرة "العمل" الحديث.

هذه هي يد العمل الساحرة والمبدعة وأثرها في إيجاد المجتمع الأوروبي وتقديم النمط الحديث للحياة فإذا انتقلنا إلى المجتمعات الإسلامية، فسندرى من النظرة الأولى أن من أكبر العوامل التي تؤدي إلى تخلف هذه المجتمعات انحطاط مستويات العمل وضحالة درجات المهارة وسوء المعاملة وعدم ملاحظة ما ينبغي للأداء من دقة وعناية والعجز عن ملاحقة السياق الحثيث الذي تتطلبه الصناعة وما إلى هذا كله مما يلمسه كل واحد تقريباً كل يوم.. مما كان له أسوأ الآثار، لأن العصر الحديث يتطلب مستوى رفيعاً من الفنية والتخصص وإحكام العمل والعلم بأسراره ودقائقه والتوصل إلى أعماقه وتوفير حاسة التوقيت والسرعة التي هي سمة العصر وطابع سياقه والتي تجعل للثواني فضلاً عن الدقائق أهمية وتقديراً.. مع القدرة على استخدام ما توصل إليه العصر من معينات ومعدات ووسائل فائقة الفنية وقائمة على النظريات العلمية والأساليب التكنولوجية من كومبيوتر وحاسبات آلية.. الخ. ولا يغني عن هذا كله المعرفة السطحية أو "الفهولة" أو الاجتهاد دون القاعدة العلمية والممارسات الفنية.

وأدى تخلف المجتمعات الإسلامية في هذا المضمار وما يتضمنه من إنتاج وصناعة ومهن وخدمات إلى ضعفها واستكانتها أمام الدول الأخرى وعجزها عن معايشة العصر معايشة إيجابية أو استخدام آلاته ومعداته التي أصبحت نوعا من لغة العصر فكأنها أصبحت عجماء وسط المتكلمين، عالة بين المستقلين، ورضيت أن تكون من الخوالف ولجأت الدول الغنية نسبيا منها إلى استيراد كل شئ من الدول الأوروبية وأذعنت راغمة لدفع الأثمان الباهظة التي تطلبها والنزول على شروطها المجحفة التي تذلل كرامتها وتستنزف ثروتها ثم لا تأمن بعد هذا كله على استقلالها أو سلامتها.

حتى الزراعة التي هي الحرفة التقليدية في المجتمعات الإسلامية والتي كانت تكفل لأهلها الغذاء وتصدير جزء كبير من الحاصلات زحف عليها التخلف ولم تستطع أن تسير التقدم الذي جعل من الزراعة (كما جعل من كل شئ تقريبا) علما وصناعة ووصل التدهور والعوز والتخلف بهذه المجتمعات أن أصبحت تستورد رغيف عيشها ومادة قوتها من الدول المتقدمة وأصبح القمح سلاحا تشهره أمريكا في وجوه هذه الدول.

ولهذا التخلف في مجال العمل والصناعة والمهارات أسباب عديدة اجتماعية واقتصادية وسياسية. ولكن من الأسباب التي لم تظفر بالاهتمام أو تتوجه إليها عناية الباحثين أن العمل قد حُرِمَ دفع ومساندة القيم الإسلامية وتجرد من طابعه ودوره الإسلامي ففقد بهذا أكبر وازع يصلح الخلل ويستدرك القصور ويكون قوة دافعة نحو استكمال ما ينقصنا واستدراك ما يفوتنا.

ولعل من أدلة هذا الإغفال أننا لا نرى اهتماما من الهيئات الإسلامية ومن الدعاة الإسلاميين بهذا المجال ولا نرى في المكتبة الإسلامية ما يتناسب مع أهميته من الكتب والرسائل ولا نجد في الهيئات الإسلامية عناية به. وقد كاد الإسلام أن يصبح مجموعة من شعائر العبادة وأن يقتصر على أداء الطقوس والفرائض الدينية من صلاة أو صيام أو حج. وحول هذه الموضوعات وحدها تدور الاهتمامات وتتركز المؤلفات واصبح الناس لا يعلمون من وسيلة للتقرب إلى الله إلا العبادات من صلاة أو صيام أو حج ولا يخطر في بالهم أن إتقان العمل وإحسان المعاملة وإدراك المهارات الحديثة في الصناعة التي تحقق العزة والكرامة للمسلمين تماثل الشعائر وتعد في الإسلام شقائقها ويثيب الله عليها مثل ما يثيب على الصلاة والصيام.

وكان لهذا الفهم الضيق آثار سيئة إذ حرم العمل من دفع أعظم المقومات وأعمقها تغلغلا في شخصية المسلمين وأكثرها تأثيرا عليها ألا وهو الإسلام وقد أثار انتباهي ما قرأته في يوم ما في جريدة الأهرام<sup>(١)</sup> من أن أحد النوادي قرر صنع عدد من اليافطات الصغيرة تحمل الأثر (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن ينقته) واتفق مع أحد الصناع على ذلك ولكن الصانع أخذ يماطل ويسوف يوما بعد يوم حتى قال مندوب النادي إن هذه اليافطة تحمل حديثا شريفا يحث على الإتقان فتنبه الصانع الذي لم يكن قد ألقى بالا إلى ما أريد كتابته على اليافطات ووعد مندوب النادي بانتهاء العمل في اليوم التالي ولما مر مندوب النادي وجد اليافطات جميعا على أحسن حال وأفضل مما طلبه واعتذر الصانع بحرارة عن تقصيره لأنه لم يلحظ الحديث وقال "أنا بصراحة لما قرئت الحديث الشريف ده تأثرت جدا".

وقد كان قيام "الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل" أول خطوة عملية وتنظيمية لسد تلك الفجوة التي فصلت ما بين الإسلام والعمل وأبرز الاتحاد - في عدد من رسائله - العلاقة الوثيقة التي تربط عالم العمل بالإسلام

(١) الأهرام العدد الصادر في ١٢/٣٠/١٩٨٠ ص ٧ "أن ينقته.. للأستاذ صلاح منتصر.

بل أثبت أن "النقابات" ليست طارئة على المجتمع الإسلامي فقد كانت موجودة بل ونقلتها أوروبا عنه كما أن الأهداف التي تدعو إليها النقابات هي نفسها الأهداف التي يدعو إليها الإسلام.

وقد عنى الاتحاد بادي ذي بدء بعلاقات العمل وضرورة تسويتها على أساس العدل الإسلامي ليتمكن حسم شأفة الخلافات ما بين العمال وأصحاب الأعمال من إضراب أو إغلاق وتحقيق السلام الاجتماعي والاستقرار الذي يمكن العمال من العمل للنهضة ببلادهم وتحقيق خطط تنميتها مع نيلهم - في الوقت نفسه - حقوقهم المشروعة.

واليوم يعني الاتحاد بجانب آخر من قضية العمل هو "تعميق حاسة العمل" في المجتمع الإسلامي وإبراز الأهمية القصوى للعمل ودوره في حياة الفرد والمجتمع وأن الموقف الذي يتفق مع الإسلام ليس هو الانعزال أو السلبية ولكن المشاركة في الحياة النشطة الزاخرة التي تموج بها جنبات المجتمع الحديث من علوم وفنون وصناعات ومهارات، وضرورة تصحيح نظرة المسلمين إلى العمل طبقا لتوجيهات الإسلام من تقان وإخلاص وإتقان واعتبار الحياة الدنيا بأسرها معركة في سبيل العمل الصالح.

وهناك اقتراح بأن ينص دستور الاتحاد على أن من أهدافه "تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي" إذ العمل مصداق الإيمان في الحياة الدنيا ومعيار الثواب والعقاب في الحياة الآخرة ووسيلة القوة والعزة للدول الإسلامية التي تخلفت عن التقدم الحديث في مجالات العمل والخدمات والمهارات".

وسيعرض هذا الاقتراح على أول مؤتمر من مؤتمرات الاتحاد لإقراره.

إن تعميق حاسة العمل في المجتمع الإسلامي يعني بالنسبة للاتحاد الإسلامي الدولي للعمل شيئا أعظم بمراحل مما يتصور الناس...

**فبعد القضية الأولى والرئيسية التي تجابه المجتمع الإسلامي، قضية حسن فهم الإسلام التي تحل لنا مشكلة "النظرية" والمسألة الحضارية والمعنوية ويمكن أن نرمر لها بالإيمان تأتي مباشرة قضية العمل التي تحل لنا مشكلة التخلف والضعف والمهانة ويمكن أن نرمر لها بالجهاد. فاليوم يكون العمل لإدراك العلوم والفنون ونيل المهارات في الصناعة والزراعة والخدمات واستدراك التخلف الاقتصادي والاجتماعي ووضع هذا كله في خدمة الإسلام والمسلمين وإعلاء كلمة الله هو الجهاد حقا ويصبح أقرب التطبيقات للمعيار الذي وضعه الرسول ﷺ عندما سئل عن الجهاد في سبيل الله فقال "من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله". كما أنه التصديق الواقعي للجمع القرآني المتوالي بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.**

القاهرة في: شعبان ١٤٠٥ / مايو ١٩٨٥

جمال البنا

# الفصل الأول

## مكانة العمل في الإسلام

### "مصدق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب"

توضح مراجعة القرآن الكريم أن "العمل" يظفر بمكانة رفيعة وأهمية بارزة بين أسس وقيم ومبادئ الإسلام. وإذا كانت هذه الحقيقة غير مشهورة أو شائعة بين الناس، فإن هذا هو ذنب الشراح والمفسرين الذين لم يتجاوبوا تماما مع لفتات القرآن، ومروا مروراً عابراً على آياته العديدة عن العمل، ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ومن دلائل الاهتمام بأمر أن يتكرر ذكره، وأن تتعدد اشتقاقاته، وإذا رجعنا إلى القرآن فإننا نجد أن كلمة "العمل" تعد من أكثر الكلمات وروداً، وأن القرآن قد ذكرها مراراً وتكراراً، واستخدم مشتقاتها العديدة فيما وضعت له فأشار إلى عمل (١٩ مرة) وعملوا (٧٣ مرة) وتعملون (٨٣ مرة) ويعملون (٥٦ مرة) وأعمالهم (٢٧ مرة) ويعمل (١٤ مرة) فضلا عن بقية المشتقات التي ذكرت مرات أقل مثل عملت - أعمل - يعمل - عملا - عملكم - أعمالكم - أعمالنا - عامل - عاملون - عاملين.. ويصل مجموع هذه الإشارات إلى ما يقارب ٣٣٠ مرة.

وبالإضافة إلى هذه الإشارات إلى كلمة "العمل" ومشتقاتها على وجه التحديد فهناك إشارات أخرى عديدة إلى "مضمون" العمل مما يدخل في مترادفات كلمة العمل مثل "فعل" و"يفعلون" و"صنع" و"يصنعون" ومثل الأمر بالسير وأكل الطيبات واستباق الخيرات الخ.. مما يكاد يضاعف الرقم السابق.

ولإيضاح دلالة هذا الرقم نقول إن الإشارات إلى الصلاة ومشتقاتها في القرآن الكريم تقارب المائة وفي أغلبية الإشارات ذكرت الصلاة مقرونة بالزكاة ومعنى هذا أن إشارات القرآن الكريم إلى العمل هي أضعاف إشاراته إلى الصلاة.

قد يقال إن العنصر الهام ليس هو مجرد الذكر وعدد مرات الإشارة ولكن المضمون والمكانة وفحوى هذا الذكر، وهنا أيضا لا يخذلنا القرآن..

ذلك أن القرآن الكريم يذكر العمل باعتباره مصداق الإيمان آونة، ومعيار الثواب والعقاب آونة أخرى، وقد يقدمه عند الذكر على التوحيد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وقد يكتفي بالإشارة إليه ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وأوصى الرسل ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾. وليس بعد هذا كله غاية في عالم العقائد..

وفي القرآن الكريم ثنائيات تتم عن طبيعته الشاملة والتكاملية ولا يمكن أن يخطئها كل من ألف قراءته فالليل يذكر مع النهار.. والشمس مع القمر، والسماوات مع الأرض، والذين يقيمون الصلاة مع الذين يؤتون الزكاة... ومن أبرز هذه الثنائيات في الدلالة فيما نحن بصده أن القرآن عندما يتحدث عن ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه يضيف إليهم دائما ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقد تكرر هذا في القرآن مرات تجاوز المائة عدا..



وهذا الربط المتواتر ما بين ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ و﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يوضح لنا أن الإيمان إنما يكتمل بالعمل الصالح. وإلا فلم يكن هناك مبرر لدوام الربط، ودلالة هذا الربط ومعناه هي ما ذكرناه من أن الإيمان يكتمل بالعمل، ولو أنعم المسلمون النظر في هذه النقطة وتوصلوا إلى دلالتها لما كان هناك داع لكثير من القضايا الجدلية التي كانت مثاراَ لمنازعات حادة عن الإيمان، وهل يقتصر على التصديق أو لا بد له من عمل. وهل يزيد أو ينقص إلى آخر ما يرد في كتب العقائد وعلم الكلام. فالإيمان دون عمل يخالف دون ريب توجيهات القرآن التي تقرر دائما وأبدا الإيمان بالعمل.

ويغلب أن تأخذ إشارات القرآن إلى المؤمنين صورة من ثلاث صور، فعندما يذكر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه كما قلنا يقرن ذلك بتعبير ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والآيات التي جاء فيها هذا القرن أكثر من أن تحصى في هذا الموجز، وعندما يتحدث إلى المؤمنين بصيغة الخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه يقرن ذلك بأحد التوجيهات العملية ﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾، ﴿لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، ﴿أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾، ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾، إلى آخر هذه التوجيهات التي تتعلق بالسلوك أو المواقف التي يجب على المؤمنين وقوفها والالتزام بها. وأخيرا فإن القرآن عندما يشير إلى ﴿مَنْ آمَنَ﴾ فإنه يضيف إلى ذلك ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمَلَ صَالِحًا﴾، ﴿مَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾، وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.. الخ.

وفي بعض الحالات لا يذكر القرآن العمل صراحة ولكنه يعطي مضمونه جنبا إلى جنب مختلف العبادات.. ففي سورة الجمعة ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وفي سورة الحج ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾، ولم يأنف من أن يرمز إلى الإيمان بكلمة تجارة ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُجْبِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾. وذكر جنبا إلى جنب الذين ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين ﴿يُضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾.

فهذه الإشارات كلها للجمع ما بين الصلاة والحج والمنافع وابتغاء فضل الله والرمز للإيمان ومختلف قرباته بالتجارة كلها توضح أن العمل بالمعنى الاقتصادي أي العمل المنتج اعتبر قرينا للإيمان ومصدقا له.

وهذا الجمع المتكرر والمتواتر بين الإيمان والعمل الصالح يوحي أن الإيمان في القرآن يعد المدخل إلى عالم العقيدة، و"الهوية" للمؤمنين. ولكن هذا المدخل والهوية لا يكفیان وحدهما بل لا بد من العمل الصالح الذي يؤكدهما ويصدقهما فليس الإيمان بالتلمي ولكن بما يصدق العمل.

وهناك إشارات أخرى في القرآن الكريم عن العمل تؤكد هذه الحقيقة لأنها لا تكتفي بجعل العمل مصداق الإيمان ولكنها تجعله المعيار في الثواب والعقاب فالمؤمنون لا يعفون بحكم إيمانهم من الحساب، إن العمل هو الذي سيقدر ما إذا كان هؤلاء المؤمنون يثابون أو يعاقبون.

والآيات عن ذلك عديدة..

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾  
(٣٠ آل عمران)

﴿وَيَسْتَخْلِفْكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٩ الأعراف)

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٢١ التوبة)

﴿لِيَلْبِئِلُوكُمْ أُيُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧ هود)

﴿وَتُوفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (١١١ النحل)

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٩٢-٩٣ الحجر)

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٤٠ غافر)

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦ فصلت)

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١٥ الجاثية)

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤ الأحقاف)

﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَانَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ (٤٤ الروم)

وفي القرآن الكريم جزء من آية، ثلاث كلمات بعيدة الدلالة والمغزى تلك هي ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ (٨٠ الأنبياء) من هذه الكلمات الثلاث نعلم أن الحديث صادر من الله تعالى.. فالله تعالى هو الذي "علم" وأن الحديث موجه إلى داود، رأس بني إسرائيل وفخرها وأن ما علمه الله لداود هو صناعة الدروع. فأبي تكريم للصناعة كما جاءت اللفظة القرآنية وهي نفسها اللفظة السارية بين العمال اليدويين.. أن يعلمها الله نفسه لداود نفسه.. كما تضمن الآية أيضا أن العلم هو وسيلة الصناعة وليس شيئا آخر.

وأبرز من هذا كله في الدلالة الآية ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. فلا شيء أصرح من هذا في أن الله تعالى جعل هذه الحياة الدنيا امتحانا يدور حول العمل.

\* \* \*

ويتفق الحديث النبوي مع القرآن الكريم في الجمع ما بين الإيمان والعمل واعتبار العمل مبرر الثواب والعقاب. فالحديث النبوي عن أن الإيمان بضع وسبعون (وفي رواية وستون) شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، يوضح لنا مدى شمول الإيمان بدءا من ذروة العقيدة حتى أدنى عمل من الأعمال اليدوية.. وهناك الحديث المشهور عن الشاب الجلد الذي تمنى الصحابة لو كان جلده في سبيل الله فصاح النبي ﷺ لهم هذا المفهوم "لو كان يسعى على أبوين شيخين فاته في سبيل الله أو يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله"، فسبيل الله ليس مقصورا على الصلاة والصيام.

واعتبر النبي ﷺ أن "أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صلاة وحملك عن الضعيف صلاة وإنحاؤك الأذى عن الطريق صلاة"، رواه ابن خزيمة في صحيحه وتحدث عن رجل "يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين.. ويقابل هذا امرأة دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض". وجاء في كتاب "أدب الدنيا والدين" للماوردي:

وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ قال أهل التأويل فإذا فرغت من أمور الدنيا فانصب في عبادة ربك وليس هذا القول منه ترغيباً لنبيه ﷺ فيها ولكن ندبه إلى أخذ البلغة منها. وعلى هذا المعنى قال ﷺ ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة.. ولا الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه وروى عن النبي ﷺ أنه قال "نعم المطية الدنيا فارتحلوها تبلغكم الآخرة" ودم رجل الدنيا عند علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه فقال رضي الله عنه الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها." (٢)

وعن أنس قال كنا مع النبي ﷺ في السفر فمنا الصائم ومنا المفطر فنزلنا منزلاً في يوم حار فسقط الصوامون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال النبي ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله. وكما فضل النبي ﷺ هؤلاء المفطرين في السفر على الصائمين ورأى أنهم "ذهبوا بالأجر" فقد فضل في حديث تعددت رواياته امرأة لا تؤدي إلا الفرائض ولكنها تتصدق ولا تؤدي جيرانها على امرأة أخرى كثيرة الصلاة والصيام ولكنها تؤدي جيرانها.

وعن أبي قلابة أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قدموا يثنون على صاحب لهم خيراً قالوا ما رأينا مثل فلان قط ما كان يسير إلا كان في قراءة ولا نزلنا منزلاً إلا كان في صلاة قال فمن يكفيه ضيعته ومن كان يعلف جملة أو دابته قالوا نحن قال فكلكم خير منه. وعن النبي ﷺ أنه قال ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه الطير أو الإنسان إلا كان له به صدقة. وقال "لو قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها".

وعن عبد الله بن مسعود قال رسول الله "طلب كسب الحلال فريضة بعد الفريضة".

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من آمنه الناس على دمائهم وأموالهم وزاد البيهقي في شعب الإيمان برواية فضاله "والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب".

وعنه أنه قال "لا إيمان لمن لا أمانة له". وقال "آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم".

وعن أنس قال رسول الله ﷺ "يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله".

وكان النبي ﷺ يستعيز من "علم لا ينفع" كما يستعيز من "قلب لا يخشع" ويقول إذا أراد الله يقوم سوءاً أوتوا الجدل ومنعوا العمل.. وكان الدعاء المأثور "اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني".

وحديث المفلس يوضح لنا أهمية العمل في مقابل العبادة وكيف أن العبادة لا تغني عنه، ونصه "أندرون من المفلس قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصوم وزكاة، وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار". رواه مسلم..

فهذه الأحاديث كلها هي كآيات التي استشهدنا بها من قبل تجمع ما بين الإيمان والعمل توضح أنه حتى تعبيرات الصدقة والصلاة والإيمان والجهاد والمسلم والمؤمن تتسع لصنوف من الأعمال مستقلة عن العبادات قدر ما هي متصلة بممارسات من صميم الحياة العملية واليومية للناس بل أن العبادات نفسها تحكم بهذه الممارسات والأعمال وتقاس بها حتى وإن شملت أدنى الأعمال وامتدت إلى الحيوان والجماد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "لأن أموت بين شعبتى رحلى أضرب في الأرض ابتغي من فضل الله أحب إلى من أن أقتل مجاهدا في سبيل الله" وقد ذكر هذه الرواية أحد الفقهاء والأساتذة في السعودية على أساس أنها تقديم من عمر بن الخطاب للكسب على الجهاد استنادا على تقديم القرآن الذين يضربون في الأرض لكسب الرزق على المجاهدين في سبيل الله ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (المزمل ٢). ونقل ما رآه بعض الفقهاء من أن الجهاد فرض "وقد اقترن بالضرب في الأرض للاكتساب فيكون الاكتساب فرضا بدلالة الاقتران وتقديمه على القتال يدل على أولويته"<sup>(٣)</sup>، ورأى الكاتب أن هذا لا يخرج عما أراده عمر من قوله واستطرد "والحقيقة أنه لولا الكسب لما قام الجهاد في سبيل الله، لأن المال عصب القتال، ومن هنا جاءت أهمية الإعداد الاقتصادي والاقتصاد الحربي لتمويل الحروب، خاصة في العصر الحاضر، إذ المال هو الوقود الحقيقي للحروب حيث تصمد الدولة في القتال ما قويت على تمويل حربها."<sup>(٤)</sup>

وقد يذكر في هذا الصدد أن القرآن الكريم عندما يذكر الذين ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإنه دائما يذكر الذين يجاهدون ﴿بِأَمْوَالِهِمْ﴾ أولا ثم بـ﴿أَنْفُسِهِمْ﴾ ثانيا.

كما قد يذكر أن حرص عمر بن الخطاب رضي الله على صحبة الرسول وتقديره لأهمية ذلك، لم يمنعه من "الصفق في الأسواق" وعندما أعلم بحديث لم يسمعه قال "ألهاني عنه الصفق في الأسواق". ولعمر رضي الله عنه أقوال أخرى معروفة في الحث على العمل فهو الذي قال لأناس وجدهم في المسجد تاركين العمل "لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول "اللهم ارزقني" فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة" وقال "اني لأرى الرجل فيعجبني فأقول أله حرفة فإن قالوا لا سقط من عيني". وقد كان هو الذي عندما مر بقوم من القراء فرأهم جلوسا في المسجد قد نكسوا رؤوسهم فقال من هؤلاء فقيل المتوكلون فقال كلا ولكنهم المتأكلون، يأكلون أموال الناس ألا أنبئكم من المتوكلون قيل نعم قال هو الذي يلقي الحب في الأرض ثم يتوكل على ربه". كذلك فإنه عندما دخل السوق في خلافته فرأى غالبية من فيه من النبط اغتم لذلك. ولما اجتمع الناس أخبرهم بذلك وعذلهم في ترك السوق فقالوا إن الله أغنانا عن السوق بما فتح به علينا فقال والله لئن فعلتم ليحتاج رجالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نسائهم".

وقال أبو قلابة لرجل لأن أراك تطلب معاشك أحب إلى من أن أراك في زاوية المسجد. وسئل النخعي التاجر الصدوق أحب إليك أم المتفرغ للعبادة فقال التاجر الصدوق أحب إلى لأنه في جهاد يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء.

(٣) الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي للدكتور محمد رواس قلنجي، صفحة ٢١ و ٢٢ بحث نشره المركز العالي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي جامعة الملك عبد العزيز جده.

(٤) المصدر نفسه.

وكان دأب السلف التثبت من الجمع بين العلم والعمل فحكى الأمام الشافعي في "الرسالة" والغزالي في "الإحياء" أن المكلف لا يجوز أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه وقال القرافي في "الفروق" فمن باع وجب عليه أن يتعلم ما عينه الله وشرعه في البيع، ومن آجر وجب عليه أن يتعلم ما شرعه الله في الاجارة ومن قارض وجب عليه أن يتعلم حكم الله في القراض.

وقال العلماء لا يجوز أن يتولى البيع والشراء ويجلس في السوق لذلك إلا من هو عالم بأحكام البيع والشراء وأن تعلم ذلك لمن أراده فرض واجب متعين عليه. وبعث عمر من يقيم من الأسواق من ليس بفقيه.

وكان مالك يأمر الأمراء فيجمعون التجار والسوقة ويعرضونهم عليه، فإذا وجد أحدا منهم لا يفقه أحكام المعاملات، ولا يعرف الحلال من الحرام أقامه من السوق وقال له تعلم أحكام البيع ثم اجلس في السوق، فإن من لم يكن فقيها أكل الربا. وكان التجار في القديم إذا سافروا استصحبوا معهم فقيها يرجعون إليه في أمرهم.

وفي المعاصرين ذهب الشيخ محمود شلتوت رحمه الله إلى أن القرآن يعبر عن العقيدة بالإيمان.. وعن الشريعة "بالعمل الصالح" وأن الإسلام يحتم "تعانق الشريعة والعقيدة بحيث لا تنفرد إحداها عن الأخرى على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة. وقد كان هذا التعانق طريق النجاة والفوز بما أعده الله لعباده المؤمنين." (٥) وهو لا يخرج عما ذهبنا إليه من أن العمل هو مصداق الإيمان.

ومقارنة جانبي العمل – أي العمل كمصداق للإيمان.. والعمل كمعيار للثواب والعقاب توضح لنا أن العمل الإسلامي وإن كان محكوما بالإيمان ويفترض أن يأتي تصديقا له.. إلا أنه من ناحية أخرى له وجوده الموضوعي وكيانه الخاص. فالعمل الحسن أو بالتعبير القرآني (الصالح) من كرم أو شجاعة أو عدل أو إنفاق أو وفاء بالعهد والوعد... الخ، له كيانه الخاص ووجوده قبل الإسلام وبعد الإسلام وسواء وقع في دار إسلام أو في دار كفر... من مسلم أو غير مسلم.

وحتى في الجانب الذي يكون العمل فيه محكوما بالإيمان فليس هناك صعوبة في تبين أن دعوى الإيمان مفتوحة ولا يمكن جردها لكل من يدعيها أو يقول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وأننا لا نستطيع أن نفترض في كل واحد فناء الحلاج أو هيام رابعة العدوية مما لا يمكن ضبطه أو تقديره، وما يمكن أن يجنح بصاحبه إلى بحار الأهواء المتلاطمة. وبالتالي فإن الدليل الوحيد لابد أن يكون العمل، لأن النية والقلب محجوبان عن هذا المجتمع لا يعلمهما إلا الله، ولهذا المعنى جاز للعمل – وهو المحكوم بالإيمان – أن يكون هو نفسه دليلا على الإيمان، ومعيارا للثواب والعقاب، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

وهناك حكمة دقيقة وهامة في هذا القرن ما بين الإيمان والعمل، وجعل العمل مصداقا للإيمان، ذلك أن العبادات التي تصطبغ تقليديا في الأذهان بالإيمان من صلاة أو صيام أو حج... الخ، يمكن أن تصبح طقوسا شكلية، ويمكن ان تصبح أداة لتعميق الإحساس بالذات بصرف النظر عن المجتمع. فالمصلي لا يعنيه ما تدور عليه حياة الناس حوله وما يملأ دنياهم من هموم ومشاكل ما دام هو عاكف على صلاته وصيامه، مؤمن أنه أدى واجبه وأنقذ نفسه وأرضى ربه، بل قد يتطور الأمر فتعطي هذه الصلاة والصيام منعزلة عن

(٥) كتاب "الإسلام عقيدة وشريعة" ص ٦ ، ٧.

العمل إشباعا كاذبا يرضي الضمير، وأن هذا هو المطلوب منه، وقد أداه فلا عليه إذا انصرف إلى غير ذلك مما يراه خارج إطار العبادة وطبقا لمصلحته وهواه دون أي اعتبار آخر، وأخيرا فقد تحيف العبادة على العمل، كما يحدث عندما يترك موظف عمومي عمله ليصلي الظهر بمجرد سماعه الأذان ويدع الناس واقفين أو متعطلين في انتظاره وقد يطيل ويصلي النوافل أيضا، وكأنه يتلذذ بتعذيب الناس أو يتقرب إلى الله بتعطيل أعمالهم!! في حين أن في الوقت المباح متسع، وأن تفريغ كربات الناس أفضل من أي قربي أخرى، وقد تحرص إحدى الوظائف على أن تغطي رأسها بطرحة كثيفة، ولكنها لا تحرص على خدمة المواطنين، وقد تكون قد لفت رأسها تخلصا من تصفيف شعرها أو سترا لبعض عيوبه، أي لغرض مادي وذاتي، أكثر مما هو استجابة لما تظن أنه توجيه من الشريعة.

وعلى مستوى المجتمع فإن توقع الوعي الإسلامي في إطار العبادة وتخليه عن مجال العمل والحياة أدى إلى صور من المفارقات تثير الدهشة والأسى. فكيف وسع علماء الأزهر الأجلء السكوت على ظاهرة البغاء. أو بالتعبير القرآني (الزنا) المصرح به من الدولة والذي كان يمارس تحت حمايتها ورعايتها لأكثر من خمسين عاما.. وعندما قضي عليه، فلم يحدث ذلك تلبية لضغط من علماء الأزهر، ولكن كمنافرة سياسية. وكيف يجوز حتى الآن أن تستمر المحال العامة الكبرى ومعظمها قطاع عام في جعل أجازتها الأسبوعية الأحد، بحيث يكون البيع والشراء على أشده يوم الجمعة.. والأذان يتعالى ونص القرآن صريح وصادع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولا يرتفع صوت من عالم أو من نقابة عمال التجارة يقول "على الأقل اغلقوا هذه المحال وقت الصلاة وأوقفوا هذا التحدي والوقاحة لنص القرآن وتوجيهه". بل إن المساجد نفسها ظلت حتى فترة قريبة جدا مسرحا للكاسيات العاريات من السائحات دون أن يخطر في ذهن أحد من الشيوخ أن يلزمهن أدب الإسلام ما دمن يدخلن مساجد الإسلام.. وتجاهل المشرفون على جامعة الأزهر صورا عديدة من تبرج الطالبات بعد أن وقف الشيخ النجار لهذه الظاهرة بالمرصاد وكاد يقضي عليها عندما كان مديرا للأزهر..

باختصار فإن الفصل ما بين "الإيمان" و"العمل" عزل الإسلام عن مجال الحياة تماما وأدى إلى إعمال المبدأ المسيحي "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" في المجتمع الإسلامي أكثر مما هو مطبق في المجتمع المسيحي حيث يكون للمسيحية صوت في المجتمع، وإن تخلت عن السياسة.

وحقيقة أن العمل، كما توضح الآيات التي استشهدنا بها من قبيل المثال لا الحصر - هو مصداق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب يجب أن لا تثير دهشتنا لأن الإسلام دين حياة ومجتمع وهو يرسى أسسا محددة في الاقتصاد والسياسة، ويتطلب مستويات معينة في التصرفات والمعاملات، فلا بد أن يكون العمل هو المحور والمعيار داخل الإطار الواسع للإيمان.. وبدون ذلك لا يمكن للمجتمع أن يكون قويا متماسكا سليما ولا يمكن أن تتوفر له القوة والمنعة والعزة والحماية من افتيات الدول الأخرى. بل ولا يتوفر له العلم الذي هو في أساس الإيمان ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. وعندما أهمل المجتمع الإسلامي "العمل" أو أساء فهمه فإن هذا المجتمع قد هوى بسرعة وتراجع أمام المجتمعات التي أخذت بأسباب العمل ولو أمعن المسلمون النظر في قرآنهم لفهموا العمل حق الفهم ولما كان لهم عذر في الخلط ما بين "العمل" والعبادة أو الظن أن العمل إنما يراد به الصلاة والصيام... الخ. ففرقة القرآن واضحة فالعمل الصالح له محتواه ومضمونه الذي يتميز عن الشعائر من صلاة وصيام والذي يذكره القرآن جنبا إلى جنب الصلاة والصيام مما يوضح أن له كيانه الخاص. وعندما أشار الله إلى وراثته الأرض فإنه لم يورثها للمسلمين أو المصلين أو المؤمنين ولكن للصالحين وسنرى في فصل تال ما هو المدلول الحقيقي لمعنى "الصالح والصلاحية" التي أرادها القرآن.

وإنها لمأساة مفرجة أن أغفل المجتمع الإسلامي المعنى الكبير للعمل وعلاقته الوثيقة بالإيمان وأن تتبه إلى هذا المعنى شعوب بعيدة كل البعد عن الإسلام. فالذين زاروا "كوريا" و"اليابان" وتفقدوا مصانعها لمسوا أن العمال هناك يؤمنون أن العمل عبادة ويمارسونه بالتركيز واستحضار القلب الواجب للعبادة. فالمصنع مسجد له قداسة المسجد، والعمل عبادة له استغراق العبادة والعمال يتقربون إلى الله بالإنتاج لأن هذا الإنتاج يملأ البطون الجائعة، ويكسو الأجسام العارية ويشفي الأبدان المريضة ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ويشيع بينهم الفنون والآداب ويرسم الابتسامات على الشفاه ويعيد الآمال إلى النفوس ويكفل للشعب كله العزة والكرامة والاستغناء عن التكفف أو الاستدانة من الآخرين.

وأي قربي إلى الله أفضل من هذا؟..

## الفصل الثاني

### أخلاقيات العمل

### القربى إلى الله والمبدئية الإسلامية

لما كان العمل - كما قدمنا - هو مصداق الإيمان في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. فإن هذا يستتبع أن يأخذ العمل الإسلامي الطبيعية الأخلاقية - الإيمانية التي تنتم بها الأديان جميعا، والتي تميزها عن النظم والقوانين الوضعية. إذ المفروض أن يأتي المصداق والمعيار من صميم ما يصدر عنه، أو يقاس به.

فالعمل في الإسلام جزء لا يتجزأ من البناء الإسلامي وهو إجمال لكافة الفرائض الإسلامية - عبادية أو دنيوية. وبالتالي فإنه يكتسب تلك الهالة من القدسية المعنوية والأدبية التي يضفيها الدين على كل ما يمت إليه. وهذه الحقيقة تعطي العمل الإسلامي طبيعة تختلف كل الاختلاف عن طبيعة العمل في المجتمع الرأسمالي أو الشيوعي حيث لا يكون للعمل - بالضرورة - طبيعة أخلاقية، ويقتصر على أن يكون وسيلة لتقاضي الأجر ولكفالة مستوى معين من المعيشة. كما يمكن أن يكون - أي العمل - أداة لإشباع الهوايات أو مراكمة الأرباح أو دليلا على النجاح والتفوق أو وسيلة لتطبيق سياسات لحزب. وهذه كلها لا تشتت توفّر طبيعة أخلاقية - ولا يختلف فيها قرش يأتي من قس، وآخر يأتي من موسم - وفي حالات عديدة تكون الأعمال للأخلاقية من تحلل أو جنس أو قمار أو خمر أو غش، أكثر ربحا وكسبا وإغراء من أي أعمال أخرى. ومع أن الطبيعة العملية المهنية نفسها اقتضت وجود آداب للعمل، وتمخضت عن ضمير مهني.. إلا أن هذه الآداب والضمانات ليست لها الطابع الموضوعي والمطلق وهي تتذبذب وتتفاوت من مكان لآخر.. ومن مهنة لأخرى، ومن وقت لآخر، وقد تكون بين القائمين على العمل بعضهم بعضا، ولكن على حساب العمال أو المستهلكين وقد يجامل الضمير المهني أرباب المهنة على حساب الآخرين. وهذا لا ينفي وجود بعض ممارسات تنتم بأخلاقية بارزة ولكنها تكون حالات فردية. وإذا غطت مهنة كاملة، فلا بد أن يكون لها أصل ديني كمهنة التمريض التي قامت في حضانة المحبة المسيحية وعلى أساس أنبل وأخص ما فيها.

إن قصور الفكر الغربي في مجال العمل لم يحدث بالنسبة للوسائل، فقد أبدع الكثير منها.. فقد تحدث البروفيسور تاووني عن الملكية كوظيفة والمهنة كرسالة، وتحدث بيتر دركر عن المنشأة كمجتمع، وأشار الكتاب الأمريكيون إلى العلاقات الإنسانية.. وتوصل العمال في ألمانيا الغربية إلى المشاركة في الإدارة، كما تولّى العمال بأنفسهم الإدارة في يوجوسلافيا ولكن كل هذه الوسائل لم تتجح تماما لأنها فقدت أي أساس ديني لها. والأساس الديني هو القاعدة الصلدة لأخلاقيات العمل. فلم تصل هذه الوسائل إلى العمق المطلوب.. كما تطرقت إليها درجات متفاوتة من الفساد والوهن، لم تكن مألوفة عندما كانت العلاقة بين الدين والعمل قائمة، قبل أن تؤدي بها "كلبية" الرأسمالية الضارية..

وكل من يقرأ تاريخ الطوائف الحرفية التي انتشرت في الشرق والغرب وتولت تنظيم علاقات العمل يعرف أنه لم يكن يسمح لأي "صبي" بأن يكون "صانعا" أو لأي "صانع" أن يكون "أسطى" أو لأي "أسطى" أن



يكون "معلما" إلا بعد أن يشهد له المعلمون الحاضرون بحسن الخلق.. وكرم المعاملة وإتقان العمل وأداء الفروض الدينية، ففي هذه العهود كان إتقان العمل والتمسك بالشعائر الدينية وجهين لعملة واحدة...  
وتصور إحدى الوثائق الطريقة التي كانت تتم بها حفله "الشد والحزام" التي يمكن عن طريقها للعامل أن يدخل الصنعة..

... " .. ويكون جميع الحاضرين جالسين على ركبهم مطرقي الرؤوس ثم يطلب النقيب من العامل قراءة الفاتحة مرة ثانية ثم يذكر النبي ويتلو الفاتحة مرة ثالثة، وبعد أن يفرغ منها يسلم النقيب سبع سلامات. سلام على الحاضرين، وسلام على الحرفة وشيوخها وسلام على أهل الميمنة وسلام على أهل الميسرة وسلام على السادة وسلام على الإصلاح وسلام على الأحباب ثم يلتفت إلى العامل ويقول له أوصيك يا من تخاوي أو تعاهد بأداء الفروض ورعاية العهد ويشهد عليك الحفظة وسيكتب من يضيعه من المبعدين.

يا بني إن جميع الحرف أهلها أمناء على الأعراض والأرواح والأموال - فكن صادقا أميناً واعلم أن كارك مثل عرضك حافظ عليه بكل ما تملك، وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرط فيها وإياك أن تخون أهل الحرفة. والخائن مسئول..

ثم يلتفت إلى الحاضرين ويسألهم.

- هل يستحق أن يكون صانعا.

فيقولون - نعم.

وحينئذ يأخذ عليه العهود الخ...<sup>(٦)</sup>

ومن الجمل ذات المغزى العميق التي وردت في هذه الفقرة جملة "واعلم أن كارك مثل عرضك" فالحرفة هي كالعرض يلحظ فيها من الأمانة والصيانة والحفظ والغيرة ما يلحظ للعرض...

\* \* \*

### ومنابع أخلاقيات العمل في الإسلام ثلاثة:

الأول - الضمير الإسلامي المهني في الفرد.

الثاني - الضوابط التي وضعتها الشريعة لتحقيق الأخلاقيات الإسلامية من تحليل أو تحريم لمختلف الممارسات العملية والاقتصادية.

الثالث - أصول ومقاصد الشريعة والروح العامة للإسلام التي يستضاء بها عند حظر أو إيجاب صنوف من النشاط أو العلاقات لم ترد في الضوابط السابقة، وتستلهم عند وضع سياسات العمل وتقعيد علاقاته التي وصلت إلى درجة عالية من التعقيد والتشابك في المجتمعات الصناعية الحديثة.

والمنبع الأول - الضمير الإسلامي المهني - هو أهم هذه المصادر لأنه يقوم بما لا يمكن أن يقوم به غيره.. أعني الرقابة الذاتية اليقظة الدائمة والمتجددة على عمل العامل.. فمن أين نأتي بمثل هذا الرقيب الذي يلاحظ ويتابع كل جزئية من الجزئيات التي يقوم بها العامل من بدء العملية الصناعية أو التجارية أو الخدمة،

(٦) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص ٥٠.

حتى نهايتها؟ وأنى لنا أن نوفر لهذا الرقيب القوة المتجددة التي يتغلب بها على عوامل الضعف وإغراءات الكسب ونوازع القصور والجهد الأقل؟. إن أي نظام سياسي أو حاكم لا يمكن أن يوجد هذا الرقيب.. وكل القوانين والسلطات ووسائل القمع ونظم المحفزات تعجز عن أن تتابع في السر والعلن أداء العامل أو تقهر فيه عوامل الضعف والإغراء، وليس هناك سوى قوة واحدة قاهرة مهيمنة عالمة بالسر والنجوى هي قوة الله.. وليس هناك من شخصية تتمتع بالتقديس وتلهم الأسوة والقوة كشخصية محمد، من هنا فإن ما يأمر به الله وما يوجه إليه الرسول يصل إلى أعماق العامل ويصبح العمل الإسلامي استجابة لإرادة الله في إعمار الكون وقربى إليه بتنفيذ أوامره وتطبيق توجيهات رسوله.. وعندما تمتلك مثل هذه المعاني نفسية العامل فإنه "يستحضر" من خلوص النية وصدق العزيمة وصفاء القلب ما يستحضره عند العبادة.. وعندئذ يكون الإتقان والإحسان والحرص على الأداء الأمثل وتحقيق الكفاية الإنتاجية وحسن استثمار الوقت والمواد.. الخ.. نتيجة طبيعية لمثل هذه المشاعر العميقة وللمحفزات الإيمانية والنفسية التي تفوق بمراحل - حتى وإن لم ترفض - المحفزات الأخرى الإيجابية والسلبية من زيادة في الأجر أو تهديد بالعقاب أو تشديد للمراقبة. لان الأجر النقدي هو من وجهة نظر العامل المسلم جزء مما يظفر به لقاء العمل.. أما الجزء الثاني فهو رضا النفس وإشباع الشخصية وحمد الله وشكره على ما قدره عليه من عمل وما أتاحه له من مساهمة في بناء المجتمع ومساعدة إخوانه على الحياة والتقرب إليه بذلك ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾<sup>(٧)</sup>

قد يقول بعض الناس إننا لا نلاحظ أبدا في حياتنا الراهنة مثل هذا الضمير المهني الإسلامي. وقد لا تكون هناك صورة أشجع من صور الاستغلال في الأداء التي يمارسها سواقو التاكسي أو جزارو الجمعية التعاونية في القاهرة حيث تتضافر الغطرسة وسوء الخدمة مع الاستغلال المالي البشع بحيث يكاد يكون عمل هؤلاء سرقة صريحة "عيني عينك". وقد يكون تسعة أعشار هؤلاء مسلمين فكيف لم يتحرك ضمير واحد منهم؟.. الرد أن هؤلاء مسلمون بالاسم. فكل إسلامهم أن أسماءهم أحمد أو محمد الخ.. والذي لديه وعي إسلامي منهم - فإن هذا الوعي متوقع في العبادة لا يمكن أن يخرج منها إلى الحياة بفعل سوء الفهم المتراكم قرونا بعد قرون. وهناك جهل مطبق بالمعاملات الإسلامية وآداب ومبادئ العمل الإسلامي لم يتحرك أحد لزحزحته وتقااست عن ذلك أجهزة الدعوة والإرشاد الرسمية، وعزفت عن معالجته الهيئات الإسلامية وأجهزة الثقافة العمالية والمنظمات النقابية التي لها علاقة مباشرة بالأمر. وقد عايشنا هذه وتلك معايشة فعالة لأكثر من ثلاثين عاما. ولم نلاحظ أن أي نقابة عنيت بهذه الموضوعات ونظمت دورات ودراسات لتوعية أعضائها بأداب المهنة وأخلاقياتها وعلى النقيض فقد حدثت سنة ١٩٨١ أزمة بين مضيبي شركة مصر للطيران وإدارة الشركة عندما رفض هؤلاء بيع الخمور داخل الطائرات. فوقف ممثل العمال في مجلس الإدارة مع الإدارة ضد المضيبيين، ولم تحرك النقابة ساكنا كأن الأمر لا يعنيها!! واضطر المضيبيون لالتمس اللجوء إلى القضاء، وهو الملاذ الأخير للإنتصاف. فأصدر حكما كان صفة لمجلس الإدارة نصير الخمور، وللنقابة اللاهية.. أما مؤسسة الثقافة العمالية فإنها لا تقرب الإسلام إلا من خلال محاضرة قد تضعها في البرنامج العام عن "القيم الروحية" أشبه بالوعظ والإرشاد. وقد أجرت جريدة الأهرام سلسلة من الأحاديث والندوات عن الممرضات ومشكلة التمريض في صيف ١٩٨١، ولم يرد في أي منها ولو مجرد إشارة إلى الوازع الديني وما يمكن أن يقوم به الإيمان الإسلامي في تقويم هذه المهنة وصالح حالها. ومهنة التمريض أساسا قامت في حضانة الأديار والكنيسة وكان الإيمان المسيحي هو الذي تغلب على صعوبات ومضايقات المهنة. فالإسلام غائب تماما عن أذهان الإنتلجنسيا المصرية.. هذا فضلا عن الفساد المدوي من الحكام وإهدار كل

(٧) انظر كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص ١١٢.

القيم والمبادئ الإسلامية فالإسلام لم يعد لكثير من هؤلاء المفخرة، والملاذ، والإلهام، ولكنه الخصم والعدو، أو هو القاضي الذي يصممهم بالخيانة والانحراف.. فيكف يمكن للأخلاقيات الإسلامية أن تظهر وسط مغارات اللصوص.. هذه..

ومن المهم أن نوضح أن أخلاقيات العمل التي تنتبثق من اعتباره قربي إلى الله لا تخرج منه عناصر الربح الخاص أو إشباع الشخصية أو جماليات العمل، ومباهجه. فلو حدث هذا لما كان هناك فرق ما بين القربي إلى الله بالعمل، والقربي إلى الله بمختلف شعائر العبادة من صلاة أو صيام. إن اعتبار العمل قربي إلى الله إنما يبعد عنه عناصر الشر والدنس والاستغلال والتفريق والكذب كما أنه يخضع نوازع الربح والكسب والطموح للحدود التي وضعها الإسلام بحيث تؤتي خيرها وتبعد شرها.

\* \* \*

**والمنبع الثاني لأخلاقيات العمل في الإسلام ما وضعه الإسلام صراحة من قواعد ومبادئ لتحقيق هذه الأخلاقية.** فقد حرم الإسلام كل صور الكسب والممارسات التي تقوم على دعارة أو خمر أو قمار أو استغلال أو غش أو غرر أو احتكار أو إكراه أو ربا.. وفي مقابل هذا أوجب الاتقان والإحسان والأمانة. وانسحبت هذه كلها ليس فحسب على الإنسان ولكن **على الجماد والحيوان**. لأن أخلاقية العمل في الإسلام "مبدئية" فهي تسري على الجميع. وإذا كانت منظمة العمل الدولية قد حددت في إحدى اتفاقياتها الحد الأقصى لما يمكن أن يكلف حمال بحمله، فإن الإسلام قد حدد هذا بالنسبة للحيوان. فروى ابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه - أنه نهى عن اركاض الفرس إلا لحاجة وأنه كتب إلى صاحب السكك أن لا يلجموا حيوانا بلجام ثقيل ولا ينخس بمقرعة في أسفله. وكتب إلى حبان بمصر "بلغني أن بمصر إبل نقالات يحمل البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرف أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل".. وحتى في الفترة المتأخرة من الفكر الإسلامي عندما أطبقت عليه الغشاوات والظلمات نجد الناج السبكي (المتوفي سنة ٧٧١هـ) يذكر بين واجبات البريذية الذين يحملون رسائل الملك وكتبه: "وحق على كل بريدي ألا يجهد فرسه بل يسوقها بقدر طاقتها وقد كثر منهم سوق الخيول السوق المزعج بحيث تهلك تحتهم أفما علموا أنها من خلق الله".

وكان من واجبات المحتسب ملاحظة الرفق بالحيوان فكان عليه أن يأخذ أرباب البهائم بعطوفتها إذا قصرُوا وأن لا يستعملوها فيما لا تطبيق وعلى المحتسب أن يأمر جلابي الحطب والتبن وغيرهم إذا وقفوا في العراض أن يضعوا الأحمال من على ظهور الدواب لأنها إذا وقفت والأحمال عليها ضررتها، وكان في ذلك تعذيب لها وقد نهى الرسول عن تعذيب الحيوان لغير مأكله، ويذكر الشيزري في الحسبة على الجزار أن لا يجر الشاة برجلها وأن لا يذبح بسكين كالة لأن ذلك تعذيب للحيوان ويشترط على من يتعاطى البيطرة أن يكون ذا علم بعلم الدواب وعلاجها وذا دين يصده عن التهجم عليها بفصد أو قطع أو كي، فيؤدي ذلك إلى هلاكها أو عطبها لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والألم.

**وهذه التوجيهات مبنية على أحاديث تكررت روايتها عن النبي ﷺ كما أن هناك أحاديث أخرى تمنع من كي ووشم الحيوان في الوجه واستمرار ركوب الدواب وهي واقفة واتخاذها منابر والنهي عن التحريش بين الطيور والحيوانات أو اتخاذها غرضا تصوب عليه النبال. وقد قضى النبي ﷺ على عادة ربط الجمل بقبر صاحبه حتى يموت معه ونهى عن قص معارف الخيل وأذناها.**

بل أن أخلاقيات العمل تنتسب على الجماد أيضا فهى النبي ﷺ عن قلع الشجر أو عضده، ونهى عن الإسراف في استخدام المياه عند الوضوء "ولو كنت على نهر جار..."

فإذا كانت أخلاقية العمل في الإسلام قد أحاطت هذه الإحاطة بالتعامل مع الحيوان والجماد فهي بالنسبة لمختلف مجالات النشاط العملي للإنسان أوسع وأكثر وقد شملت مضمون العمل بحيث استبعت كل صور الممارسات للأخلاقية، كما شملت الأداء فأوجبت الإتقان والإحسان والأمانة والوفاء بالوعد والعقود.. "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه".." "إن الله كتب الإحسان في كل شئ" .. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. "الصلاة أمانة والوضوء أمانة والوزن أمانة والكيل أمانة وأشد ذلك الودائع".." ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾... والآيات القرآنية الواردة في الوفاء بالكيل والميزان أكثر من أن تذكر..

وقد تتضح أخلاقية العمل الإسلامي من أنه يعطي العامل الحق بل يوجب عليه الامتناع عن بعض صور الأداء التي تناقض التوجيهات الإسلامية، حتى وإن أمر بها رؤسائه أو جر عليه مغنما. وقد ضرب الشيخ تاج الدين عبد الوهاب السبكي بعض أمثلة ذلك عند حديثه عن واجبات بعض الحرفيين.. فمن ذلك أن الساقى لا يحل له أن يحضر لمخدومه منكرا يشربه وعليه إعمال الفكرة والحيلة في سد هذا الباب وبالنسبة للفراشين الذين ينصبون خيام الأمراء "وحق عليهم أن لا يحتجروا على الناس ويمنعونهم أرض الله الواسعة. فما أظلم فراش الأمير وغيره إذا جاء إلى ناحية من الفضاء فوجد فقيرا قد سبق إليها ونزل منها ليخيم للأمير مكانه وحكم الله أن السابق أولى والأمير والمأمور في ذلك سواء". وبالنسبة للمكاري "ومن حقه التحفظ فيمن يركبه الدواب ولا يحل لمكار يؤمن بالله واليوم الآخر أن يكره دابته من امرأة يعرف أنها تمضي إلى شئ من المعاصي فإنه أعانه على معصية الله". أما السجن "وإذا علم السجن أن المحبوس حبس بظلم كان عليه تمكينه من الفرار قدر استطاعته وإلا يكون شريكا لمن حبسه في الظلم". ورأى التاج السبكي أن "المشاعلي" وهو الذي يكلف بتنفيذ حكم الإعدام شنقا أو قتلا "متى أمر ولي الأمر مشاعليا بقتل إنسان بغير حق والمشاعلي يعلم أن المقتول مظلوم فالمشاعلي قاتل له يجب عليه القصاص وإن كان ولي الأمر أكرهه أو جعل أمره إكراها فالقصاص حينئذ عليهما جميعا عند الشافعي" (٨)

فهذه النصوص توضح أن أخلاقية العمل في الفقه الإسلامي تجعله بعيدا كل البعد عن الصور الفاشية للعمل في المجتمع الرأسمالي أو في السلك الحكومي والإداري أو العسكري حيث لا تشترط أخلاقية أو يفرض فرضا الالتزام بالتعليمات.. أو تعد إطاعة الأوامر مبررا للإعفاء من المسؤولية.

\* \* \*

أما المصدر الثالث لأخلاقية العمل فإنه الأصول والمبادئ العامة للإسلام وما يستلهم منها. فعلى سبيل المثال عندما هدم الإسلام الحواجز الطبقية، ونادى بوحدة الإنسان ومساواة الأفراد وقاوم تلك الاعتزازات بالجنس أو باللون أو بالوراثة أو الغنى فإنه أعلى من قيمة العمل اليدوي. فرفع النبي ﷺ عاليا يد الصحابي التي مجلتها المسحاة من العمل قاتلا: "هذه يد يحبها الله ورسوله". بل وجعل العمل اليدوي الأفضل فعندما سئل أي الكسب أطيب قال: "عمل الرجل بيده.. وكل بيع مبرور".." وقال: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يديه".." وقال: "إن الله يحب العبد المحترف" وقال: "من أمسى كالا من عمل يده أمس مغفورا له".." وعندما كان النبي وصحابته في سفر وأرادوا إعداد الطعام وتكفل كل واحد بجانب من العمل قل الرسول "وعليّ جمع الحطب" ورفض أن يكفيه

(٨) انظر الاستشهاد بهذه الأمثلة وغيرها في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" ص ٨٨ - ٩١.

صحابته قائلاً إن الله يكره العبد المتميز" وكان في بيته يخصف نعله ويرقع ثوبه ويحلب شاته ويعقل بعيره ويعلف ناضحه ويقم (أي يكنس) بيته. وهناك من صغار الموظفين من يجدون حرجاً في القيام بمثل هذه الأعمال ويرون ذلك عاراً ولكن النبي العظيم لم يستتف عن هذا ولم يستتف أن يقول للعباس وبنيه وهم يسقون ويعملون في زمزم "اعملوا فإنكم على عمل صالح"، ثم قال: "لولا أن تغلبوا لنزلت حتى أضع الحبل على هذه"، وأشار إلى عاتقه "البخاري". وقد كانت فاطمة الزهراء وزوجها علي بن أبي طالب في ذروة "الأرستقراطية" الإسلامية القرشية النبوية.. ومع هذا فإنها جرت الرحي حتى أثرت في يدها. واستنقت بالقرية حتى أثرت في نحرها وكنست البيت حتى أغبرت ثيابها" .. وعندما سألت أباها أن يعينها بخادم قال لها: "انقي الله يا فاطمة وادي فريضة ربك واعلمي عمل أهلك". ونصحها بالدعاء.

وبينما كان أبو جهل يأسى وهو في سكرات الموت لأن الذي أصابه (عبد الله بن مسعود) من رعاة مكة ومستضعفها ويقول له: "لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويحي الغنم". كان الرسول نفسه يقول إنه رعى الغنم على قراريط لأهل مكة.

هذا مثال واحد لأثر أصل من الأصول الإسلامية على أخلاقيات العمل وهو يوضح لنا كيف أن المساواة التي جاء بها الإسلام أعطت العمل اليدوي "أخلاقية" وتكريماً بعد أن كان في العهد القديم بأسره وسواء عند المصريين القدماء أو اليونان أو العرب أنفسهم في الجاهلية يصطحب بالمهانة. وعند تدهور القيم الإسلامية في المجتمع الإسلامي نفسه فقد العمل اليدوي هذا التكريم وعادت المهانة مرة ثانية إليه.

ومع أن آثار الأصول الإسلامية على أخلاقيات العمل يمكن أن تكون كثيرة كثيرة هذه الأصول إلا أن الاستفادة العظمى من هذه الأصول قد لا تكون على وجه التعيين - في مجال أخلاقيات العمل.. ولكن في مجال سياسات العمل وعلاقات العمل وهذا هو ما سنعالجه في الفصل التالي.

إن الأهمية الكبرى لقضية العمل في العصر الحديث وأنها المحور الأعظم الذي تدور عليه الحياة اليومية للناس قاطبة، وأن الخلل والنقص والقصور فيها يثير الاضطراب ويفاقم المشكلات.. تجعل لأخلاقيات العمل نصيباً بارزاً في تحقيق الدور المطلوب.. والحيلولة دون أن يتطرق إلى عالم العمل عناصر الفساد والانحراف. وقد ناشد البروفيسور تاووني **R. H. Tawney** في ختام كتابه "مجتمع الاستحواز". "The Acquisive Society" الكنيسة أن تعود لممارسة مسئولياتها الأدبية، وأن تكافح ليستلهم العمل من إدارات ونقابات القيم والمثل المسيحية، وأكد أن هذا ليس خيالاً، أو "يوتوبياً" ولكنه الحائل دون القلق والتوتر والفوضى.. وما تؤدي إلى هذه في النهاية من حروب.

## الفصل الثالث علاقات العمل وتلاقي الحقوق بالواجبات

ظهر الإسلام قبل أن تحدث الثورة الصناعية في أوروبا بعشرة قرون تقريبا، أي قبل أن يظهر المصنع الآلي والقوة المحركة والرأسماليون والطبقة العاملة والحركة النقابية، فضلا عن أن جزيرة العرب كانت صحراء لم تقم بها حضارة زراعية أو صناعية كالتي قامت في مصر أو العراق وكان النشاط الاقتصادي البارز شيئا ما فيها هو التجارة والرعى. ومن هنا فلم يتضمن القرآن أو السنة نصوصا صريحة، ومحددة عن علاقات صناعية بالمعنى الذي نفهمه الآن ما بين العمال وأصحاب الأعمال، ولكننا مع هذا نستطيع أن نتوصل إلى هذه الخطوط من أصلين أولهما المبدأ الرئيسي **عن أن العمل واجب أولا، وعن هذا الواجب ينبع الحق**، وما يستتبعه هذا المنطق من آثار على العلاقات. والثاني ما يمكن قياسه من العلاقات التي كانت تحكم فئتي قوة العمل المأجور الموجودة وقتئذ، وهما الخدم والرقيق وكذلك بعض الأحكام الخاصة بالتجارة التي تبلور فيها النشاط الاقتصادي تقريبا في الجزيرة العربية عند ظهور الإسلام، واستنباط الأحكام المطلوبة من الأصول والمبادئ العامة التي استهدفها الإسلام لصالح المجتمع، وقد نجد عند قراءة القرآن، ومعاني علاقات العمل ماثلة في الذهن ما يمكن اعتباره أساسا لعلاقات صناعية إسلامية كالذي حدث عند تفسيرنا للآية ٢٨٢ من سورة البقرة - وهي آية الدين - تفسيراً يجسد الاتفاقيات الجماعية في العصر الحديث دون أي افتيات أو تطويع للآية.<sup>(٩)</sup>

- والأصل الأول من هذين ألا وهو أن العمل في الإسلام واجب مشتق من أن القرآن الكريم والسنة النبوية يوجبان إيجابا العمل على كل مسلم، ويمليانه ويحددان له طبيعته ونطاقه وأداءه، ثم لا يكتفیان بذلك، بل هما أيضا يوجبان عليه اجتناب أنماط معينة من الأعمال، وأساليب معينة من الأداء بحيث يشمل الوجوب الناحيتين الإيجابية والسلبية.

وهذا المنطلق - منطلق الوجوب - يختلف تماما عن منطلق العمل في المجتمعات الدنيوية التي لا تلتزم بتوجيه الهي إذ يكون العمل فيها بالنسبة لعامة الناس مجرد وسيلة لاكتساب الرزق ("أكل عيش")، ويتركز الاهتمام على الحقوق ومدى ما يمكن الوصول إليه والحصول عليه وتكون الواجبات تبعا للحقوق ("على قد فلوسهم")، وتخضع وسائل الأداء لطرق المراقبة والمحفزات المادية ويتحكم في سياسات العمل ما يسمونه "سوق العمل" وآلياته ("ميكانزم") دون النظر إلى أخلاقيات تحكم هذا السوق بينما يكون العمل لدى القلة المميزة مجرد وسيلة لكسب المال أو إنفاقه دون نظر إلى أخلاقيات تحكمه فيمكن أن يأتي عن طريق استغلال حروب أو أزمات أو خداع ويمكن أن ينفق على الاستمتاع والإثارة والبذخ والسفه.

ومن ناحية أخرى فإن الإسلام عندما يوجب العمل على الناس فإنه يعفي الدولة من أن تكون محتكرة توريد العمل، سواء أكان ذلك عن طريق تملك الدولة لوسائل الإنتاج (الذي يطلق عليه خطأ التأميم) .. أو عن

(٩) انظر هذا التفسير في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" الصفحات ٧٦ - ٨١.

طريق إيقاع مسئولية تعيين الخريجين على وزارة القوى العاملة تبعاً لما تضعه من قواعد، فهذا أو ذلك بعيد عن سياسة العمل الإسلامي وروحه وجوهر نظامه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. لأنه مجرد الأفراد من الحرية والإرادة والتصرف في مستقبلهم بما يشاءون ولأنه يكثف قوة الدولة على حساب الشعب بحيث تصبح الدولة كما لو كانت هي ("الرزاق الوحيد") وما دامت هي الرزاق الوحيد فإنها تستطيع أن تحجب رزقها عن تغضب عليه من معارضين أو مخالفين ويصبح هذا الاحتمال سلاحاً فعالاً في يد الدولة لإخضاع الشعب وحمله على الإذعان والطاعة، وشيئاً فشيئاً يصبح الناس نوعاً من رقيق الدولة ويفقدون حريتهم وكرامتهم وأصالتهم، ولا قيمة لشيء بعد هذا.

ولما كانت الواجبات الإسلامية (التي يدخل فيها العمل) ذات صفة شاملة ومطلقة وتوجه للناس عامة ودون استثناء وكانت طبيعة العمل وأخلاقياته مبدئية وواحدة لا تختلف فإن وجوب العمل لا يقتصر على العمال ولكنه ينسحب على أصحاب الأعمال والدولة. فالعمل بالنسبة لهم جميعاً - واجب له أخلاقياته ومبدئياته والنتيجة أن يحدث تلاقح يجعل واجبات فريق هي حقوق فريق آخر. فأخلاقيات العمل توجب على العمال الإخلاص والإحسان وعدم استغلال الوقت والمواد في غير مصلحة العمل.. وأخلاقيات العمل توجب على أصحاب الأعمال مقابلة الإحسان بالإحسان وتحريم عليهم البخس أو الاستغلال.

وهكذا ينال العمال حقوقهم حتى دون مطالبة لأن حقوقهم تلك هي واجبات أصحاب الأعمال كما يظفر أصحاب الأعمال بحقوقهم في الإتقان والمهارة الخ.. لأنها واجبات العمال ويفترض أن يتم هذا بالنسبة للفريقين ما ظلت آليات أخلاقيات العمل في الإسلام تعمل بانتظام.

ولكن لما كان الضعف الإنساني متمكناً في النفوس وكان إغراء الربح طاغياً والميل للتهاون وبذل الجهد الأقل غالباً، فإن الإسلام وضع المعيار الذي على أساسه تتم التسوية ويحدث التقابل ما بين الواجبات والحقوق. وهذا المعيار هو العدل الإسلامي المستمد رأساً من القرآن الكريم ومن الصحيح الثابت من السنة ومن سياسات الخلفاء الراشدين.

والنصوص التي تتناول هذا العدل عديدة وصريحة وجازمة والمطلوب هو ترجمتها إلى مواد وتقنياتها. فهو أبعد شيء عن أن يكون شعاراً أجوف يراد به التخدير أو الخداع. انه قواعد عملية وسوابق فعلية وهو بعد هذا روح الإسلام والطابع الرئيسي والعام له.

والخصيصة التي يتسم بها العدل الإسلامي ويتميز بها عن دعاوي العدل الأخرى هي أنه موضوعي فلم يضعه أصحاب الأعمال ولم تضعه الحكومة بل ولم يضعه العمال ولكن الله تعالى هو الذي قرره في كتابه وبالوحي إلى نبيه. ومن هنا فلا يمكن الطعن فيه بدعوى الذاتية التي أفسدت كل صور العدل المزعومة التي وضعها ويدعيها طرف من الأطراف.

ولما كان الجميع ينطلقون من نقطة واحدة هي العمل المفروض والمحكوم بأخلاقيات مبدئية واحدة ويستهدفون غايات محكومة أيضاً بالأخلاقيات السابقة نفسها فإن النتيجة أن المجتمع يسير في اتجاه واحد. العامل يسير، وصاحب العمل يسير، والدولة تسير، والجميع يكسب من هذا السير تبعاً لقواعد العدل الإسلامي ويتم هذا بنعومة واتساق وتنحسم شأفة التناقضات والصراعات التي تأتي من اختلاف المنطلقات وتعارض الغايات وانعدام الأخلاقيات الواحدة.

وبهذا يتحقق السلام الاجتماعي والتنمية الاقتصادية في وقت واحد وبأفضل ما يتصور.

ولا يتسع المجال للإسهاب في إيضاح تفاصيل واجبات الجميع (التي يصبح بعضها حقوقا لآخرين) ولكن يمكن القول بصفة عامة أن كل ما يدخل في إتقان العمل والاقتصاد في الوقت والموارد بحيث يتسعا لأكبر إنتاج ممكن مما يدخل في واجبات العامل. وأن راحته والبعد عن أي صورة للإرهاق أو الاستغلال وضرورة احترام كرامة العامل ومنحه المقابل العادل، كل هذا يدخل في واجبات صاحب العمل، وأن إعداد البيئة المناسبة وتهيئة المناخ العام وإتاحة فرص التدريب واكتساب المهارات وتوجيه الاقتصاد والإنتاج وجهة إسلامية وتصحيح الخلل والانحراف في المسار مما يدخل في واجبات الدولة الإسلامية وتصبح بالتالي حقوقا للمواطنين تجاهها وهي في كل هذا محكومة بأخلاقيات العمل وتحقيق العدل الإسلامي.

والالتزام بهذه الواجبات وتطبيقها يتطلب تغييرا في رسم السياسة الاقتصادية وتحديد ظروف وشروط وعلاقات العمل.

وقد يقتضي الأمر إشارة خاصة إلى قضية الأجور، فالأجور قد لا تعني في المجتمع الرأسمالي إلا أرقاما في الميزانية وبندا من بنود التكاليف في المشروع، ولكنها في مجتمع إسلامي تنبض بالحياة وتمثل الطعام والشراب والسكن والكساء والتعليم والترفيه وتلك البسمة التي ترتسم على الشفاه والشعور بالرضا عند ضمان إشباع هذه الاحتياجات والأمن من كابوس الحاجة والضيق من هموم الدين: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ "اللهم زدها نعمة واحفظها من الزوال".

وبالتالي فيجب أن تضمن الأجور هذه الحياة وأن تترجم هذه البنود إلى أرقام تمثل في مجموعها الأجر القياسي للعامل<sup>١٠</sup> الذي يكفل على الأقل الحياة الوسط للعامل (لا وكس ولا شطط).

وهذا المعنى الإنساني للأجر جزء من صميم المجتمع الإسلامي الذي يقوم على التكافل وينظر إلى المسلمين على أنهم "كأسنان المشط يسعى بذمتهم أدناهم" أو اللبنة في البناء أو الأعضاء في الجسم، كما أنه جزء من أخلاقيات العمل.

من هنا يجب أن توضع الأجور على أسس إنسانية لا حسابية وإلا يسمح للعوامل الاقتصادية بأن تحيف على الحقوق الإنسانية أو المستويات المعيشية - بل على العكس - يجب أن يكون على هذه العوامل الاقتصادية أن تكييف نفسها تبعا للمستويات الإنسانية.

ولكن هذا المعنى الإنساني قد يتباين مع ما تقضي به العدالة في قضية الأجور. فطبقا لقواعد العدالة يجب أن ينظر إلى الأجور من زاوية الإنتاج، فمن يعمل عملا مساويا لعمل آخر يفترض أن ينال أجرا مماثلا ومن يعمل عملا أقل ينتقاضى أجرا أقل وهو ما يتفق مع فكرة انبثاق الحقوق من الواجبات. بيد أن هذا قد لا يؤدي بالضرورة إلى تحقيق المستوى المعيشي (الوسط) المنشود إذ قد يكون أحد العمال متزوجا ووالدا لعدة أبناء وهي وقائع لا أثر لها في ناحية الإنتاجية وبالتالي الأجر. ومن هنا يفترض أن يكمل الأجر من بنود الرعاية الاجتماعية الإسلامية التي تكون "الزكاة" أبرز مصادرها وبهذا نجمع بين تحقيق العدالة والكفاية.

---

(١٠) يجب ألا نخلط بين الأجر القياسي وبين الحد الأدنى للأجور والمفروض أن يكون الأجر القياسي بين الحد الأدنى والحد الأعلى للأجور.



ويقارب هذا الجانب من جوانب قضية الأجور نقطة المشاركة في الربح. فنحن نرى أن الأصول الاجتماعية الاقتصادية للإسلام تؤيد هذا الاتجاه، فالإسلام ينظر إلى العمال والإدارة كشريكين مصالحهما واحدة ويعلي المعنى الأخلاقي الاجتماعي على المعنى المادي والفردي.

\* \* \*

- والأصل الثاني للتعرف على أحكام علاقات العمل هو، كما ذكرنا النصوص التي تحكم العلاقة ما بين الخادم والسيد أو العبد والسيد، وهي عديدة، وصريحة، خاصة من السنة، وهي تحمي الخادم والعبد جسدا وروحا حماية كاملة وتكفل له مستوى من المعاملة يكاد يرقى به إلى مرتبة المساواة بالسيد، وهو ما تقضي به الأحاديث النبوية التالية.

• لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي - كلكم عباد الله، وكل نسائكم إماء الله - ولكن فتاي وفتاتي. ونهى المملوك والجارية أن يقولوا ربي وربتي، ولكن سيدي وسيدتي.

• وعن أبي مسعود البدي رضي الله عنه، قال كنت أضرب غلاما لي بالسوط فسمعت صوتا من خلفي يقول اعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام فقلت لا أضرب مملوكا بعده أبدا. وفي رواية، فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى فقال أما أنك لو لم تفعل للفتحك أو لمستك النار.

• وعن زاذان وهو الكندي مولاهم الكوفي، قال أتيت ابن عمر وقد اعتق مملوكا له فأخذ من الأرض عودا أو شيئا فقال مالي فيه من الأجر ما يساوي هذا سمعت رسول الله ﷺ يقول من لطم مملوكا له أو ضربه فكفّارته أن يعتقه رواه أبو داود واللفظ له ورواه مسلم ولفظه قال من ضرب غلاما له حدا لم يأتيه أو لطمه فإن كفّارته أن يعتقه.

• وعن معاوية بن سويد بن مقرن قال لطمت مولى لنا فدعاه أبي وقال اقتص منه، فأنا معشر بني مقرن كنا سبعة على عهد رسول الله ﷺ وليس لنا إلا خادم فقلطمها رجل منا فقال رسول الله ﷺ اعتقوها قال إنه ليس لنا خادم غيرها قال فتخدمهم حتى يستغنوا، فإذا استغنوا فاعتقوها رواه مسلم وأبو داود واللفظ له والترمذي والنسائي.

• وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال قال لي رسول الله ﷺ من ضرب مملوكه ظلما قيد منه يوم القيامة رواه الطبراني ورواه ثقات.

• وعن عائشة رضي الله عنها قالت جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال إن لي مملوكين يكذبونني ويخونني ويعصونني واشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم فقال رسول الله ﷺ إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم بقدر ذنوبهم فإن كان كفافا لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل فتتحى الرجل وجعل يهتف ويبيكي فقال له رسول الله ﷺ أما تقرأ قول الله تعالى ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ فقال الرجل يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيرا من مفارقتهم أشهدك أنهم أحرار.

• وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ في بيتي وكان بيده سواك فدعا وصيفة له أو لها حتى استبان الغضب في وجهه وخرجت أم سلمة إلى الحجرات فوجدت الوصيفة وهي تلعب ببهيمة فقالت ألا أراك تلعبين بهذه البهيمة ورسول الله يدعوك فقالت والذي بعثك بالحق ما سمعتك فقال رسول الله ﷺ لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك! رواه أحمد بأسانيد أحدها جيد واللفظ له ورواه الطبراني بنحوه.

• وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال جاء رجل مستصرخ إلى رسول الله ﷺ فقال جارية له يا رسول الله ﷺ (١٢) فقال ويحك مالك قال شرا.. ابصر لسيد جارية (١٣) فغار فجب مذاكيره فقال رسول الله ﷺ اذهب فأنت حر فقال يا رسول الله على من نصرتي قال نصرتك على كل مسلم أخرجه أبو داود (الجب القطع والمذاكير جمع ذكر على غير قياس) (تيسير الوصول).

• وعن المعرور بن سويد قال رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تعالى تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكفوهم من العمل ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه أخرجه الخمسة إلا النسائي (الخول حشم الرجل واتباعه) (تيسير الوصول).

• وعن علي رضي الله عنه قال كان آخر كلام النبي ﷺ الصلاة اتقوا الله فيما ملكت أيمنكم رواه أبو داود وابن ماجه إلا أنه قال الصلاة، وما ملكت أيمنكم.. وروي ابن ماجه وغيره عن أم سلمة قالت أن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه "الصلاة، وما ملكت أيمنكم" فما زال يقولها حتى ما يفيض لسانه.

• وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيورا فاستوفى منه ولم يعطه أجره (البخاري).

• وعن عثمان رضي الله عنه قال لا تكلفوا الصبيان الكسب فانكم متى كلفتموهم الكسب سرقوا، ولا تكلفوا الأمة غير ذات الصنعة الكسب، فانكم متى كلفتموها كسبت بفرجها، وعفوا إذ اعفكم الله وعليكم من المطاعم بما طاب منها (أخرجه مالك).

• اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه.

• من استأجر أجيورا فليعلمه أجره.

• وعن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ نهى عن استئجار الأجير حتى يبين له أجره.

\* \* \*

فهذه النصوص عن جوانب عديدة من التعامل مع الخدم يمكن أن تستلهم عند تحديد جوانب مماثلة من علاقات العمل، مع ملاحظة أن الطابع المثالي في الحقوق هو جزء من أخلاقيات العمل الإسلامي، ويفترض

(١١) هو روح بن دينار.

(١٢) أي لسيدة واسمه زنباع.

(١٣) وفي ابن ماجه " قال سيدي رأني أقبل جارية له "

أن يستتبعه عرفان وتقدير من العمال وإقامة للعلاقات أو تسوية الخلافات في مناخ من السلام الاجتماعي. وعلى كل حال فما لم يدرك كله، لا يترك كله.

وقد يشبه هذا إلى حد ما أن الإسلام عندما وضع الحدود جعل العقوبة التي توقع على العبد نصف العقوبة التي توقع على الحر، وليس من فرق بين هذا وذاك إلا انتقاص الحرية. فكان الإسلام جعل الحرية - ومدى توفرها أو انتقاصها - عاملاً مؤثراً عند إصدار الأحكام؛ ومن المسلم به أن العمال وإن كانوا يتمتعون بالحرية القانونية - إلا أنهم قلما يتمتعون بالحرية الاقتصادية، وأنهم في مرحلة الرأسمالية الضاربة.. كانوا مجبرين ومكرهين على الاستسلام لإرادة الرأسمالي لأن رفض ذلك يعني مجابهة المجاعة. ولعلمهم، في هذه المرحلة - كانوا أسوأ - من العبيد.. فهل يمكن أن تطبق على مثل هؤلاء العقوبة التي تطبق على الذين يرتعون في بحبوحة الثراء والرخاء؟

بالإضافة إلى هذه النصوص، فإن القرآن والحديث عالجا جوانب عديدة من التعامل التجاري وحرماً كل الممارسات التي تتضمن عنصراً من عناصر الضرر أو الغبن والاستغلال، وهذه يمكن استلهاها، لأن ما يطبق حماية للمستهلك يمكن أن يطبق حماية للعامل، ولأن استبعاد وسائل الغبن والاستغلال الخ... قضية مبدئية لا تتغير في التجارة عنها في الصناعة أو الخدمات أو أي نشاط آخر. ومن هنا يفترض أن تكون هذه النصوص محل دراسة وعندئذ فيغلب أن توحى إلينا بمبادئ وقواعد لم يلتفت إليها القدامى من المفسرين أو الفقهاء الذين لم تعرض لهم مشاكل العصر.

وكما سبق وأشرنا، فإن الآية ٢٨٢ من سورة البقرة التي عالجت الدين إلى أجل مسمى، وضرورة الكتابة، والاشهاد الخ... يمكن أن تتسحب على العقود ذات الالتزام المؤجل، وقد تنبّه إلى ذلك المرحوم الشهيد عبد القادر عودة بصفة عامة، في كتابه "التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي" وعالجنا تفسير الآية في كتابنا "الإسلام والحركة النقابية" بحيث ظهر أن الآية تكاد تكون تجسيماً للحكم في "العقود الجماعية" التي تعقدها النقابات باسم العمال، وتعد محور العمل النقابي في المجتمعات ذات الاقتصاد الحر..<sup>(١٤)</sup> بل وأثبتنا أن العقود المتبعة حالياً في معظم الدول تخالف نصوص الآية.

وهناك نصوص في القرآن والحديث يمكن أن تعد أصولاً تشريعية يستند إليها في تأصيل كثير من الأحكام مثل "المؤمنون عدول يسعى بذمتهم أدناهم"، "لا ضرر ولا ضرار" .. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ الخ...

\* \* \*

ويبقى بعد هذا المصدر الأعظم لاستلهاهم قواعد علاقات وسياسات العمل في الإسلام، ألا وهو مقاصد الشريعة وروح الإسلام والأهداف العظمى التي من أجلها أنزله الله تعالى للناس ليسود القسط والعدل، وإنقاذ الناس من ظلمات الجهالة إلى نور المعرفة.. ومن عبادة الطاغوت والحكام والأوثان إلى عبادة الله الرحيم الرحمن الخ... وهذا المصدر على أنه أعظم المصادر فإنه لم يلمس لأن معالجته تفترض الاجتهاد وإنعام النظر واستخلاص الأحكام.. الخ. وقد تقاعست هم فقهاء المسلمين عن ذلك ورضوا أن يستلخص الأحكام لهم أسلاف مضى عليهم عشرة قرون.

وعلى سبيل المثال فنحن إذا طلبنا إشارات عن "النقابة" في كتب الفقه، أو في السنة، أو حتى في القرآن فقد لا نجد (حتى وإن جاء ذكر "النقيب" في القرآن). ومن الطبيعي أن لا نجد للنقابات ذكراً لأن النقابات إنما

(١٤) انظر هذه المعالجة في كتابنا الإسلام والحركة النقابية، الصفحات ٧٦ - ٨١.

ظهرت منذ ثلاثة قرون كرد فعل للاستغلال الرأسمالي، الصناعي ولكننا نستطيع - بكل اطمئنان - أن نقطع بأن النقابات تنظيم لا يتعارض مع الإسلام - بل هو يتفق معه. لأن النقابات من ناحية الشكل تنظيم جماعي، والجماعة مفضلة في الإسلام على الفرد ولأنها من ناحية الأهداف تستهدف العدل وإنصاف المستضعفين ونيلهم لحقوقهم وهذه من صميم أهداف الإسلام..، ولأن وسائلها حتى عندما تصل إلى المقاطعة والإضراب ليست إلا صوراً من المقاومة السلبية في سبيل نيل هذه الحقوق، والمقاومة الإيجابية مشروعة في الإسلام لنيل الحقوق: "ومن مات دون ما له فهو شهيد". وهذا الحديث يفتح باب الشهادة للنقابيين ولكل الذين يدافعون عن حقوقهم فضلاً عن عشرات الأحاديث والآيات التي تصدع كلها بمقاومة الظلم وانتهاك الحقوق.

مثال آخر. ان الإسلام كقاعدة عامة يكيّف الحرية في مجال العلاقات والحقوق بمعيّار العدل وهو لا يسيغ ممارسة الحرية اعتباطاً ولا يسمح بها إذا تجاوزت إطار الحقوق. يستوي في ذلك الدولة وسيادتها المزعومة أو الفرد وشعاره "بمالي أفعل ما بدا لي". ومن هنا، فإن أي قرار تصدره الإدارة لمجرد أن هذا يدخل في دائرة حقها في إصدار القرار "دون إبداء الأسباب"، يمكن أن يكون محلاً للطعن إذا جاوز إطار العدل أو تضمن ضرراً لأي طرف من الأطراف. ولا بد لأي قرار تصدره أي جهة أن يكون قائماً على تسبب سليم، وأن لا يتضمن ضرراً لآخر، وأن يكون لأي طرف يمسّه حق الانتصاف.

ولكن قد يكون أهم من هذا كله وأعمّ عند تحديد العلاقات، أن الإسلام قام أولاً وقبل كل شيء لتحقيق العدل. وأن الفيصل في علاقات العمل ما بين العمال وأصحاب الأعمال والمستهلكين، يجب أن يكون العدل الإسلامي. وهذا يمثل منطلقاً جديداً كل الجدة لبناء علاقات العمل. ففي المجتمعات ذات الاقتصاد الحر تبني العلاقات الصناعية على أساس "تصادم" منطلق العمال.. مع منطلق أصحاب الأعمال. وقد تتدخل الحكومة لحماية المستهلك أو للحفاظ على الأمن والاقتصاد القومي دون نجاح كبير. وفي المجتمع الشيوعي تسود مشيئة الحزب الحاكم الذي لا معقب لإرادته. وهذه كلها منطلقات "ذاتية" أما المنطلق الإسلامي، فهو موضوعي يقوم على العدل الذي يفترض أن ينزل عليه ويلتزم به الجميع. أصحاب العمل، والعمال، والحكومة. وهذه هي الإضافة التي يقدمها - باسم الإسلام - **الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل** ويرى فيها وحدها الحل لأزمة النقابية في المجتمعين الرأسمالي والشيوعي على سواء - وجلاها في عدد من كتبه ورسائله<sup>(١٥)</sup> وينص عليها دستوره.

---

(١٥) انظر كتابنا "أزمة النقابية" وكذلك "الإسلام والحركة النقابية".

## الفصل الرابع مضمون العمل أصل القيمة وشمول الأداء

إذا كان العمل – كما ذكرنا في الفصل الأول – هو معيار الحساب ثوابا أو عقابا فما هي دلالة ذلك في لغة الاقتصاديين المحدثين؟ إن الدلالة التي يمكن أن تستمد من هذه الواقعة هي أن الإسلام يجعل العمل هو أصل القيمة... خاصة إذا أضفنا إلى هذه الحقيقة.. حقيقة أخرى هي أن الإسلام لا يعطي الجاه أو النسب أو الوراثة أو المظهر أية قيمة ولا يجعل لها عند الحساب وزنا. بل إن الإسلام لا يعطي المال في حد ذاته قيمة (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى) وإنما تنسب القيمة لطريقة الحصول على هذا المال والهدف منه.. ثم طريقة التصرف فيه. ففي المجتمع الرأسمالي يعد المال الأصل الأول الثمين، أو "الرأس" ويطلق عليه مجمعا ومتراكما "رأس المال" الذي تدور عليه بقية الأصول.. وتبدأ به المشروعات ويضفي الاحترام والمنزلة الاجتماعية على صاحبه. فالغني يحترم لثروته حتى وإن حصل عليها بأحط الوسائل – "فالنقود لا رائحة لها" وحتى إن كان جاهلا، لأنه يمكن أن يستأجر العلماء... والفقير يُزدري لفقره "حتى وإن كان عالما" فاضلا. ولكن الأمر يختلف في المجتمع الإسلامي فلا يمكن الحصول على مال إلا بفضل العمل<sup>(١٦)</sup>.. ومن خلال وسائل مشروعة، ولا يجوز التصرف فيه إلا خلال قنوات مشروعة.. وهذه القنوات من عمل وإخلاص وابتغاء الخدمة.. مع الاستمتاع المشروع.. هي ما تعطي المال أهميته، وما يستمد منها قيمته. أما المال في حد ذاته أو خارج هذه الأطر فلا يغني شيئا.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) ، (مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيهِ) ، (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا).

وأشد من هذا كله صراحة الآية (وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) إذ هي تنفي عن الإنسان إلا ما يسعى له ويقوم به – أي العمل.

وتحريم الإسلام للربا.. وتحليله للبيع دليل آخر على أن العمل هو أصل القيمة، لأن الفرق الرئيسي بين الربا.. والبيع (أو مختلف صور النشاط المباح) هو أن المال في الحالة الأولى يكسب دون عمل يقوم به صاحبه.. وأنه في الحالة الثانية إنما يكسب بما يقوم به صاحبه من عمل. فافتقاد العمل في الربا من أهم أسباب التحريم..<sup>(١٧)</sup> واصطحاب العمل في البيع هو سبب التحليل، وما هذا إلا لأن العمل يمثل إضافة منشئة ويرتبط بالإنسان ويستهدف إثراء الحياة وإشباع الاحتياجات وتقديم الخدمات وتفريغ المتاعب والكربات في حين يقترن الربا بالسلبية أونة.. والاستغلال أونة أخرى، ويعزز هذا أن الإسلام يحرم كسب مال دون بذل جهد

(١٦) ما عدا الميراث بالطبع وهو استثناء وعدالة توزيعه تفتته بين الورثة.

(١٧) هذا تكييف جديد لتحريم الربا خلاف ما يؤسس عليه التحريم عادة من استغلال وهو أعم من الاستغلال لأن الفائدة المصرفية التي تقدم للمودع قد ينتفي منها عناصر الاستغلال، وبالتالي يمكن تقبلها، ولكنها ترفض عندما يؤسس التحريم على أساس انتفاء العمل.

مقابله "كخياط يتقبل ثوبا للخياطة بدينار فيعطيه لغيره ليخيطه بنصف دينار ويأخذ هو الفرق دون أن يساعده في عمله ودون أن يعطيه خيوطا أو أزرارا أو غير ذلك"<sup>(١٨)</sup>. ومثل هذا الحكم يمكن أن يقضي على كل صور "التعاقد من الباطن" التي تنتفل على الإنتاج وتكسب دون القيام بأي عمل.

ويشبهه تحريم الإسلام للربا تحريمه الاكتناز لأنه تعطيل عن "عمل" الذهب والفضة وقيامهما بدورهما كأداة للتعامل وكذلك تحريمه "احتجان" الأرض لأنه تعطيل عن استخدامها واستثمارها بفكرة بيعها عند ارتفاع أسعار الأراضي، وأقوى من هذا إشارة الحديث إلى أن من "أحيا أرضا مواتا فهي له". فالحديث يشير إلى الأرض دون العمل باعتبارها "مواتا" ثم يشير إلى العمل باعتباره "إحياء" للأرض، وبالتالي فإن من يقوم بهذا يصبح مالكا لها. وأخيرا فيمكن الإشارة إلى تحريم الإسلام للقسامة. وهي أن يأخذ شخص مالا أو أجرا لقاء تشغيله آخرين. فهذا يستغل العمل دون أن يعمل هو.. كما يستغل المرابي المال دون أن يعمل هو، ونص الحديث "عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله إياكم والقسامة قلنا وما القسامة قال الرجل يكون على فئام من الناس فيأخذ حظ هذا وحظ هذا" أخرجه أبو داود<sup>(١٩)</sup>. ونجد "القسامة" الحديثة في "متعهد توريد الأنفار" أو الكفيل في بعض الدول الإسلامية. فهما معا يكسبان من عمل العمال – دون أن يعملوا شيئا.

وفي كل هذه التحريمات فإن الإسلام يصدر عن أصل واحد هو تحريمه للبطالة والاستغلال والكسب دون عمل واعتباره العمل أصل القيمة.

ولما كان العمل أصل القيمة، فإن الإسلام يفترض في الإنسان السوي وفي المجتمع السوي العمل. "قيمة كل امرئ ما يحسنه" و "إنما يقدر الإنسان عمله"<sup>(٢٠)</sup> وكان كبار الصحابة أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف الخ.. من أصحاب الحرف والمهن. ومع أن صحبة النبي ﷺ كانت أحب إليهم من أبصارهم وأسماعهم، فإنهم لم يروا أن ذلك يوجب عليهم هجر أعمالهم فكانوا سحابة النهار في السوق. وعندما ذكر عمر بن الخطاب بما لم يسمعه من النبي قال "ألهاني الصفق في الأسواق". ولم يعتمد المهاجرون على كرم الأنصار الذين كانوا على استعداد للنزول لهم عن نصف أموالهم، ولكنهم مارسوا حرفهم.. بل إن الأنبياء أنفسهم كانت لهم حرفهم المعروفة. فنوح كان نجارا وداود حدادا وإدريس ناسجا وموسى راعيا.. كما كان محمد ﷺ راعيا وتاجرا وقال "ما بعث الله من نبي إلا رعى الغنم فقالوا حتى أنت يا رسول الله. قال نعم كنت أرى على قراريط لأهل مكة".

ولم ير الإسلام أن "التوكل" ينافي العمل. فعندما أخبر النبي ﷺ أصحابه بأنه ما من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار أو الجنة قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فرد أعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة ثم قرأ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى) الآية.. (متفق عليه). فالنبي ﷺ يوضح لهم أن العمل هو سبيل هذا المصير، وعلى أساسه تحدد. فلا يتصور أن يكون هناك توكل دون عمل ومن هنا أيضا وجه الإعرابي "اعقلها وتوكل"

(١٨) حاشية ابن عابدين. استشهد بها في بحث "الاحتراف وأثره في الفقه الإسلامي" د. محمد رواس قلنجي.

(١٩) أنظر تيسير الوصول ص ١٤٥ الجزء الرابع (المكتبة التجارية) وطبع بالمطبعة السنافية وقال محققه آخر الحديث القسامة (بضم القاف) ما يأخذه القسام جريا على عاده السماسرة دون الرجوع إلى أجرة المثل.

(٢٠) جاء هذا التعبير البليغ على لسان سلمان الفارسي رضي الله عنه عندما كتب أبو الدرداء إليه "هم إلى الأرض المقدسة" فقال سلمان "إن الأرض لا تقدر أحدا" وإنما يقدر الإنسان عمله" في قصة طويلة – جاءت في تيسير الوصول

فالتوكل لا ينفي العمل، ولكنه يتبعه. وحتى الحديث المشهور "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا" فإن الله تعالى لم يرزق الطير وهي جائمة أو في وكناثها وأعشاشها، وكان عليها أن تغدو وتروح حتى يرزقها الله.

كذلك يتفق مع هذا – أي جعل الإسلام العمل أصلا للقيمة – كراهة الإسلام للبطالة ودمه للمسألة.

وقد شبه النبي ﷺ المسألة تشبيها مروعا حقيق بأن يكف صاحبها عنها إلى الأبد "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس بوجهه مزعة لحم" وقال "لأن يأخذ أحدكم أحبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خيرا له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه" وهذا هو ما طبقه الرسول عندما جاءه رجل من الأنصار يسأله فقال له: "أما في بيتك شيء قال بلى جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء قال أتني بهما فأتاه بهما فأخذهما ﷺ بيده وقال من يشتري هذين فقال رجل أنا أخذهما بدرهم قال رسول الله ﷺ من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا فقال رجل أنا أخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما للأنصاري وقال اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتني به فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال له اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما ففعل. ثم جاءه وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وبيع بعضها طعاما فقال له رسول الله ﷺ هذا خير لك من أن تجئ المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة ان المسألة لا تصلح إلا لذي فقر مدقع أو لذي غرم مفقع أو لذي دم موجع" (أخرجه أبو داود وهذا لفظه والترمذي باختصار).

وقال النبي ﷺ أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفي الفارغ، والمكفي هو الذي يكفيه غيره مسألة معيشته والفارغ المتعطل الذي استمر الكسل والتعطل.

\* \* \*

على أن المضمون الاقتصادي للعمل في الإسلام الذي يجعل العمل أصل القيمة ليس إلا جانباً من جوانب هذا المضمون. أما الجانب الآخر فهو شمول العمل الإسلامي لكافة صور العمل على نقيض المذهب السائد في الفكر الحديث الذي يحصر العمل في العمل "الاقتصادي" أو "العمالي" أو "الأجري" أو "النقابي". فالمضمون الإسلامي للعمل يغطي كل من "يعمل عملا صالحا" سواء كان موظفا أو طالبا أو ربة بيت أو حرفيا أو تعاونيا أو متطوعا لعمل خيري فكل هؤلاء يعدون "عمالا" ويدخل عملهم في إطار العمل الإسلامي..

والنتيجة التاريخية لدلالة كلمة "عمال" يوضح كيف أنها تدهورت مع تدهور المجتمع الإسلامي بعد ازدهاره فترة النبوة والخلافة الراشدة التي كانت كلمة "عمال" فيها تطلق على ولادة الأمصار والقائمين على الزكاة. ثم بدأت تتدهور وتقلص تدريجيا حتى كادت تنحصر في العمل اليدوي<sup>(٢١)</sup>. ونحن في الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل نجد عناء أي عناء في أن نفهم الناس أن كلمة "عمل" وعمالا لا تقتصر في الإسلام على عمل الصناعة أو أعضاء النقابة أو أصحاب الياقات الزرقاء، ولكنها تضم كل فئات المجتمع التي تعمل عملا صالحا.

(٢١) وهذا يناقض ما ينتهي إليه تتبع دلالة الكلمة (عمال) في المجتمع الأوروبي فقد نظر إليهم، في الثورة الصناعية كما لو كانوا حثالة المجتمع ثم أخذت الدلالة تتقدم وتتسع وتضم فئات جديدة من الكتبة والموظفين والمهنيين حتى كادت تشمل العاملين جميعا.

ويمكن أن نلاحظ بدايات هذا التدهور في فهم دلالة كلمة العمل في كتابه بعض كتاب القرن الخامس الهجري "كالماوردي" الذي تحدث عن الصناعة باعتبارها صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة متأثرا بالطبع بالفهم الإسلامي الأولي الذي يعطي الكلمة معنى الشمول، ولكنه - متأثرا ببداية التدهور - اعتبر أن صناعة "العمل" أحط من صناعة الفكر رغم الأحاديث النبوية التي تعطي العمل اليدوي أفضلية.

وكلام الماوردي مع هذا له أهمية لأنه يصور لنا "عالم العمل" في ذهن فقيه يمثل عصره، ويكون من الخير أن ننقل النبذة كلها هنا:

"ثم أنه جلّت قدرته جعل سد حاجتهم وتوصلهم إلى منافعهم من وجهين بمادة وكسب. فأما المادة فهي حادثة عن اقتناء أصول نامية بذواتها، وهي شينان نبت نام وحيوان متناسل وقال الله تعالى (وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ) قال أبو صالح أغنى خلقه بالمال وأقنى جعل لهم أقتنية وهي أصول الأموال. وأما الكسب فيكون بالأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة وذلك من وجهين أحدهما تقلب في تجارة والثاني تصرف في صناعة. وهذان هما فرع لوجهي المادة فصارت أسباب المواد المألوفة وجهات المكاسب المعروفة من أربعة وجوه ثمار زراعة ونتاج حيوان وبيع تجارة وكسب صناعة. وحكى الحسن بن رجاء مثل ذلك عن المأمون قال سمعته يقول معاش الناس على أربعة أقسام زراعة وصناعة وتجارة ومال فمن خرج عنها كان كلا عليها. وإذ قد تقررت أسباب المواد بما ذكرناه فسنصف حال كل واحد منها بقول موجز.

أما الأول من أسبابها وهي الزراعة فهي مادة أهل الحضر وسكان الأمصار والمدن والاستمداد بها أعم نفعا وأوفى فرعا، ولذلك ضرب الله المثل بها فقال (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ نَجْمًا مِنَ النَّخْلِ تُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ). وروي عن النبي ﷺ أنه قال "خير المال عين ساهرة لعين نائمة" وقال ﷺ "نعمت لكم النخلة تشرب من عين خراة وتغرس في أرض خواره وقال ﷺ في النخل "هي الراسخات في الوحل المطاعم في المحل" وقال بعض السلف خير المال عين خراة في أرض خواره تسهر إذا نمت وتشهد إذا غبت وتكون عقبا إذا مت. وروى هشام عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قال قال رسول الله ﷺ "التمسوا الرزق في خبايا الأرض" يعني الزرع وحكى عن المعتضد أنه قال رأيت على بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام يناولني المسحاة وقال خذها فإنها مفاتيح خزائن الأرض، قال كسرى للموبذ ما قيمة تاجي هذا؟ فاطرق ساعة ثم قال ما أعرف له قيمة إلا أن تكون قطرة في نيسان فإنها تصلح من معايشة الرعية ما تكون قيمته مثل تاج الملك. ولقى عبد الله بن عبد الملك ابن شهاب الزهري فقال أدلني على مال أعالجه فأنشأ ابن شهاب يقول:

**تتبع خبايا الأرض وادع مليكها      لعلك يوما أن تجاب فترزقا**  
**فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة      إذا ما مياه الأرض غارت تدفقا**

وقد اختلف الناس في تفضيل الزرع والشجر بما ليس يتسع كتابنا هذا لبسط القول فيه غير أن من فضل الزرع فلقرب مداه ووفور جده، ومن فضل الشجر فلقرب أصله وتوالي ثمره.

وأما الثاني من أسبابها وهو نتاج الحيوان فهو مادة أهل الفلوات وسكان الخيام لأنهم لما لم تستقر بهم دار، ولم تضمهم أمصار افتقروا إلى الأموال المتنقلة معهم ومالا ينقطع نمأوه بالظعن والرحلة فاقتنوا الحيوان لأنه يستقل بالنقلة بنفسه ويستغني عن العلوقة برعيه ثم هو مركوب ومحلوب فكان اقتنائه من أهل الخيام أيسر لقلته مؤنته وتسهيل الكلفة به وكانت جدواه عليهم أكثر لوفور نسله واقتنيات رسله إلهاما من الله لخلقته في تعديل المصالح فيهم وإرشادا لعباده في قسم النافع بينهم وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال "خير المال مهرة مأمورة وسكة



مأبورة" ومعنى قوله ﷺ مهرة مأمورة أي كثيرة النسل وفيها تأول الحسن وقتادة قوله "أمرنا مترفيها" أي أكثرنا عددهم، وأما السكة المأبورة فهي النخلة المأبرة الحمل، وروي عن النبي ﷺ أنه قال في الغنم "سمنها معاش وصوفها رياش" وروي عن أبي طيبان أنه قال قال لي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما مالك يا أبا طيبان قال قلت عطائي الفان قال اتخذ من هذا الحرث والسائبات النتاج. وحكى أن امرأة أتت النبي ﷺ قال يا رسول الله إني اتخذت غنما ابتغي نسلها ورسلها وأنها لا تنمي فقال لها رسول الله ﷺ ما ألوانها قالت سود فقال لها عفري. وهذا مثل قوله ﷺ في مناكح الأدميين اغتربوا ولا تضوا.

**أما الثالث من أسبابها وهي التجارة** فهي فرع لمادتي الزرع والنتاج فقد روي النبي ﷺ أنه قال تسعة أعشار الرزق في التجارة والحرث والباقي في السائبات وهي نوعان تغلب في الحضر من غير نقلة ولا سفر وهذا تربص واحتكار، وقد رغب عنه ذوو الأقدار وزهد فيه ذوو الأخطار والثاني تغلب بالمال بالأسفار، ونقلة إلى الأمصار فهذا أليق بأهل المروءة وأعم جدوى ومنفعة غير أنه أكثر خطرا وأعظم غررا، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "ان المسافر وماله لعلى قلت<sup>(٢٢)</sup>، إلا ما وقى الله" يعني على خطر وفي التوراة يا ابن آدم أحدث سفرا أحدث لك رزقا.

**أما الرابع من أسبابها وهو الصناعة** فقد يتعلق بما مضى من الأسباب الثلاثة وتنقسم أقسامها ثلاثة صناعة فكر وصناعة عمل وصناعة مشتركة بين فكر وعمل لأن الناس آلات للصناعة فأشرفهم نفسا متهيئ لأشرفها جنسا، كما أن أردلهم نفسا متهيئ لأردلها جنسا لأن الطبع يبعث على ما يلائمه، ويدعو إلى ما يجانسه وحكى أن الاسكندر لما أراد الخروج إلى أقاصي الأرض قال لارسطاطليس اخرج معي فقال قد نحل جسمي وضعفت عن الحركة فلا تزعجني قال فما أصنع في عمالي خاصة قال انظر إلى من كان له عبيد فأحسن سياسهم فوله الجنود. ومن كانت له ضيعة فأحسن تدبيرها فوله الخراج فنبه باعتبار الطبع على ما أغناه عن كلفة التجربة. وأشرف الصناعات صناعة الفكر وأردلها صناعة العمل لأن العمل نتيجة الفكر وتدبيره. فأما صناعة الفكر فقد تنقسم قسمين أحدهما ما وقف على التدبيرات الصادرة من نتائج الآراء الصحيحة كسياسة الناس وتدبير البلاد وقد أفردنا للسياسة كتابا لخصنا فيه من جمعها ما ليس يحتمل هذا الكتاب زيادة عليها، والثاني ما أدت إليه المعلومات الحادثة عن الأفكار النظرية وقد مضى في فصل العلم من كتابنا هذا باب أغنى ما فيه عن زيادة قول فيه.

**وأما صناعة العمل فقد تنقسم قسمين عمل صناعي وعمل بهيمي.** فالعمل الصناعي أعلاهما رتبة لأنه يحتاج إلى معاطاة في تعلمه ومعاناة في تصدره فصار بهذه النسبة من المعلومات الفكرية والآخر إنما هو صناعة كد وآلة مهنة وهي الصناعة التي تقتصر عليها النفوس الرذلة وتقف عليها الطباع الخاسئة كما قال أكرم بن صيفي لكل ساقطة لاقطة، وكما قال المتلمس:

**ولا يقيم على ضيم يسام به**

**هذا على الخسف مربوط برمته**

**إلا الأذلان عير الحي والوتد**

**وذا يشج فلا يرثي له أحد**

**وأما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل فقد تنقسم قسمين** أحدهما أن تكون صناعة الفكر أغلب والعمل تبعا كالكتابة والثاني أن تكون صناعة العمل أغلب والفكر تبعا كالبناء وأعلاهما رتبة ما كانت صناعة الفكر أغلب عليها والعمل تبعا لهذا فهذه أحوال الخلق التي ركبهم الله عز وجل عليها في ارتياد موادهم ووكلمهم إلى

(٢٢) في المصباح المنير 'قلت قلنا من باب تعب هلك وتسمى المفاز مقلته بفتح الميم لأنها محل الهلاك، وقلت نقرة في

الجبيل يستنقع فيها الماء والجمع قلات مثل سهم وسهام" المؤلف.

نظرهم في طلب مكاسبهم وفرق بين همهم في التماسها ليكون ذلك سببا لألفتهم. فسبحان من تفرد فينا بلطيف حكمته وأظهر لفطنتنا عزائم قدرته. (٢٣) أنتهى.

فالماوردي في هذه النبذة الطويلة يصور لنا عالم العمل في القرن الخامس من الهجرة والحادي عشر من ميلاد المسيح، ويعيد معاش الناس وسد حاجاتهم، والتوصل إلى منافعهم إلى مادة. والمادة هي الأصول النامية بذواتها، وهي عنده نبت نام وحيوان متناسل - أي الزراعة والثروة الحيوانية. أما الكسب فهو العمل، أو الأفعال الموصلة إلى المادة والتصرف المؤدي إلى الحاجة. وهذا يتم بربح تجارة وكسب صناعة. **والصناعة بدورها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: صناعة فكر. وصناعة عمل. وصناعة مشتركة.** فصناعة الفكر تضم سياسة الناس وتديبير البلاد. أو العلم والفقه. وصناعة العمل أيضا تنقسم إلى عمل صناعي وعمل يهيمي أما الصناعة المشتركة بين الفكر والعمل، فقد تكون صناعة الفكر فيها أغلب مثل الكتابة، أو صناعة العمل فيها أغلب مثل البناء.

وقد لفت انتباهنا في يوم ما أن بعض الفقهاء رأوا أن الشريعة لا تفرض على الزوجة فرضا خدمة زوجها أو تربية أولادها أو العناية ببيتها، وأن عقد الزواج لا يلزم الزوجة بسوى حفظ عرضه وطاعته بالمعروف باعتباره رئيسا للأسرة. ويفترض في هذه الحالة أن يجلب لزوجته من يقوم بكل هذه الشؤون المنزلية أو أن يعطيها أجرا لقاء قيامها بذلك ومع أن هذا لم يطبق عمليا، وأنه يخالف بعض النصوص مما جعله محل الاستهجان، إلا أنه يكشف عن وجه آخر للقضية جدير بالنظر، وأخذت به بالفعل بعض النظم بدرجات متفاوتة. فقررت صورا من المكافآت المادية أو التأمينات والتعويضات وغيرها للزوجات والأمهات وربات البيوت.

ونحن في الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل نرى أن "ربات البيوت" من المجموعات التي يحق لها الانضمام بحكم صفتها، شأنها في ذلك شأن المنظمات العمالية والطلابية والتعاونية الأخرى لأن ربات البيوت يعملن عملا صالحا، بل لعله أعظم الأعمال الصالحة إذا أردن به تربية الجيل تربية إسلامية رشيدة.

---

(٢٣) أدب الدنيا والدين - للقاظي أبي الحسن على بن محمد البصري الماوردي ص ١٨٧ - ١٩٤ طبعة المعارف العمومية سنة ١٩٢٨.

## الفصل الخامس مقومات العمل النية والصلاحيّة

يتميز العمل الذي يثاب عليه ويعتد به في الإسلام عن غيره بمقومات معينة من أبرزها "النية" أو ما يمكن أن نسميه الإرادة. ففي الإسلام يفترض أن يصدر العمل عن نية طيبة.. وهو يقاس بدرجة "طيبة" وسمو وخلوص هذه النية. وأساس هذا المقوم القاعدة العامة التي وضعها الحديث المشهور "إنما الأعمال بالنيات" والتي استلهم فيها روح القرآن عندما حقق للإنسان حرية الاختيار ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ (الليل ٥-١١) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس ٧-٩) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء ١٨-٢٠).

وهذا المقوم هو مما لا يمكن لغير الإسلام أن يتضمنه، لأن للإسلام ولاية خاصة على قلب المؤمن به متأية من الله - الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويستلهم من النبي وهو المثل الأعلى والأسوة والقوة وهذا وذلك هما مما لا يوجد في الاقتصاد أو القانون أو النظم الوضعية عامة. وتميز العمل الإسلامي بهذا المقوم يجعل العمل جزءا من إيمان العامل، وبلورة لضميره. ولا يمكن لمثل هذا العمل المنبثق عن الإرادة المكتسب للنية الخالصة أن يقطع اقتطاعا من العامل نفسه ولا أن يكون سلعة تباع وتشتري في سوق العمل (كما يقال في الاقتصاد الرأسمالي) ويخضع لما تخضع له السلع من قوانين العرض والطلب والمنافسة بحيث تبخس الأجر حتى يتحقق قانون الأجر الحديدي. إن العمل الإسلامي باعتباره بلورة لإيمان العامل المسلم وضميره يجب أن يمنح حماية من عمليات البيع والشراء وضغوط المنافسة، كما أن العامل المسلم نفسه فرد في مجتمع التكافل الإسلامي الذي لا يهدر فيه جهد، ولا يضيع فيه فرد ويقوم على أساس الجسد الواحد.. "وان المؤمنين عدول يسعي بذمتهم أدناهم"، ومن شأن هذا وذلك حسم أي استغلال أو متاجرة لعمل يمثل إيمان العامل وضميره.

واشترط توفر النية في العمل جعل الإسلام يستبعد أسلوب السخرة والإكراه، فكل عمل أجبر العامل على أدائه يفقد أصالته و"عذريته" ولا يعتد به، ويجوز للعامل إن استطاع أن يتحلل منه دون مسئولية كما يجوز لكل مكره على قسم أو يمين أن يتحلل منه دون أثم.

ولقد قيل إن سوء المجتمع الرأسمالي هي البطالة، وأن معجزة المجتمع الاشتراكي هي العمالة، ولكن إذا أخذت هذه العمالة شكل السخرة والإكراه، فإن المجتمع الاشتراكي يكون قد وصل من النقيض إلى النقيض، ووقع في مثل، أو أسوأ، من بطالة المجتمع الرأسمالي، لأن العمل سخرة لا يشرف أحدا، ولا يغني عنه حينئذ "شعارات العمل حق.. العمل واجب العمل شرف الخ.." فإنما يكون واجبا مشرفا عندما يؤمن به العامل نفسه

ويسعى إليه، أما أن يحمل عليه حملاً ويسخر فيه قسراً، فإنه يكون عندئذ عقوبة أسوأ من السجن لأن السجن عقوبة مقيدة للحرية، ولكنها لا تمس شخص المسجون، ولكن العمل سخرة عقوبة مقيدة للحرية.. ومنصبه على شخص السجن.

ومن هذا العرض نجد أن مقوم النية في العمل الإسلامي الذي يجعل العمل يصدر إيماناً وبيلاً ضميراً يكفل لهذا العمل ميزة الحرية ويحرره من وصمة السخرة، وفي الوقت نفسه فإنه يحميه من أن يكون عرضة للمتاجرة في "سوق العمل" باعتباره سلعة أو أن يخضع للاستغلال.

وقد تنبه الفقهاء في إحدى لحظات التوفيق والإلهام النادرة أن النية تجعل العادة عبادة "فمن كان يشرب أو ينام بفكرة المحافظة على صحته وأن يقوم بواجبه نحو نفسه وأولاده وبلده، ويستطيع الوفاء بالتزاماته الإسلامية فإن هذه الأفعال كلها تصبح عبادات ويثاب عليها".

بالإضافة إلى هذا كله، فإن اعتبار "النية" مقوماً من مقومات العمل الإسلامي أو أنه - على الأقل - عامل يجب أن يحسب حسابه سيحد شيئاً ما من أسلوب إجزاء العمال إلى أعمال لا يتجاوزون معها أو جعل "المجموع" هو معيار التعيين.. وسيؤدي هذا إلى الأخذ بنظم القابلية والحرص على توفر عنصر التفضيل الشخصي ما أمكن ذلك.

وإذا تحكمت الضرورات فسبق فرد ما إلى عمل لا يحس نحوه قابلية أو تجاوبا، فاعتقد أن من المفروض أن يمنح مثل هذا الفرد "علاوة" تعينه على تقبل هذا العمل.

\* \* \*

ومن المقومات البارزة في العمل الإسلامي أن يكون "صالحاً" وكلمة صالحاً والصالحات ومشتقاتها هي من الألفاظ القرآنية التي أعطاه تواترها في القرآن "هوية" قرآنية توضح قسماتها وتجعل معاجم اللغة توردتها كالاتي:

**صلح** : زال عنه الفساد، وصلاح الشيء كان نافعاً أو مناسباً وأصلح في عمله أو أمره أتى بما هو صالح ونافع وأصلح الشيء أزال فساده. وأصلح بينهما أو ذات بينهما أو بينهما أزال ما بينهما من عداوة وشقاق.

**وصالحه مصالحه وصلاحه** (يكسر الصاد) سالمه وصالفه ويقال صالحه على الشيء سلك معه مسلك المسالمة في الاتفاق.

**الصالح** المستقيم المؤدي لواجباته.

**الصلاح** الاستقامة.. والصلاح السلامة من العيب.

**والصلاحية**.. الاتساق في عمل ما "والصلاحية للعمل حسن التهيؤ له"<sup>(٢٤)</sup>.

وهذا التحديد لمعنى الكلمة هو ما يتفق مع معنى الكلمة في القرآن. لأن القرآن يستخدمها في مقابل الفساد.. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾، ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. كما أن القرآن يذكر اللفظة في مقابل الظلم أيضاً.. وعقب التوبة ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلِحْ﴾، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.

وهكذا يتضح أن معنى كلمة الصالح والصالحات لا يمكن أن يقتصر على الشعائر والفرائض العبادية، كما يتصور الناس وأن الرجل الصالح ليس هو بالدرجة الأولى، من يتزبي بزي التقوى والورع، ولكنه النافع والمناسب والعاقل والكفاء والبريء من شوائب الفساد أو الظلم.

وقد يستخدم القرآن لفظة أخرى أكثر مباشرة وأقرب في الدلالة على الطابع العملي وهي "حسنة" وهو يستخدمها في مقابل لفظة أخرى تماثلها في الدلالة على الطابع العملي وهي "سيئة". وتبني القرآن لهذه اللفظة، وليس لفظة "خطيئة" ذات الدلالة الدينية يوضح الطابع العملي للإسلام. وإن كانت كلمة "حسنة" ومشتقاتها أيضا قد التبست في الإفهام بما يجعلها تعطي معنى "التصدق" برا وعطفا.

وعلى كل حال، فإن "التصدق" ليس بعيدا عن مجال العمل.. وهو أقرب إليه مما هو إلى مجال العبادة، لأنه ليس إلا صورة من صور الإنفاق ذات الأثر البعيد في صلاح المجتمع.

مع هذا فعلى أن نلاحظ أن القرآن، وإن كان قد اختار لفظتي الصالحات والحسنات اللتين توحيان بمعان ذات طبيعة عملية من إحسان أو كمال أو استقامة أو صلاحية الخ.. فإن الكلمتين نفسيهما لهما صلة ما بمعان الطيبة والخير التي ترتبط بالدين. فالعمل الإسلامي يتطلب نية طيبة خيرة - كما يتطلب فعالية وإحسانا، وقد أجمل القرآن بإعجازه الخارق القضية كلها في لفظتين عندما صور المثل المنشود للعامل ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. فالإسلام لا يقنع بقوة دون أمانة أو أمانة دون قوة وإنما هو يريد هما معا للعمل الإسلامي، وإن تفاوتت النسب، أو تطلبت المواقف إبراز عنصر على عنصر. فقد كان حظ خالد بن الوليد - ممثل القوة في قيادة الجيوش أعظم من حظ أبي عبيدة ممثل الأمانة، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر من بعده. يعلمون أن خالد أقل من أبي عبيدة سابقة وإيماننا ولكنه أرجح منه قيادة ولهذا أثروه بالقيادة. مع أن النبي ﷺ كان يقول "اللهم أني أبرأ إليك مما فعل خالد!" وأن أبا بكر كتب إلى أبي عبيدة ".. ولّيت خالد لقتال العدو في الشام فلا تخالفه واسمع له واطع. وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل ديننا، ولكنني ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك فأحببت أن أنسى به الروم وسأوس الشيطان". ولم ير عمر بن الخطاب أن عمار بن ياسر أو أبا ذر بأصحاب ولاية على حين أنه أبقى معاوية بن أبي سفيان واليا للشام، وأين معاوية من عمار وأبي ذر ورعا وإيماننا وسابقه وصحبه، ولكنه كان أدري منهما بفنون الحكم، وهذا هو ما يطلقون عليه في التعبيرات الحديثة "الرجل المناسب في المكان المناسب".

واستخدام هذين المقيمين : النية والصلاحية لتقييم العمل وهما الحكم على مدى إسلاميته - بمعنى أن كل عمل يؤمن صاحبه أن ممارسته له توفر له مورد العيش الذي يفضل، أو لا يستطيع احترام غيره في ظروفه وملابساته، وأن هذا العمل يفيد المجتمع، ويسد ثغرة من احتياجات المسلمين، فإنه يعد "إسلاميا" يثاب عليه، وإن تقييم العمل قد لا يكون بالعمل نفسه قدر ما يكون بالنية فيه ومكانه في خدمة المجتمع. فقد تكون بعض الأعمال مرهقة، متعبة، تضطر صاحبها إلى صنوف من الأذى والقدر، ولكنها مع هذا تكون "إسلامية" يثاب صاحبها عليها، وبل قد يضاعف له الثواب لقاء ما يعانيه من إرهاق وأذى..

استخدام هذا المعيار المزدوج (النية والصلاحية) يختلف اختلافا تاما عن مذاهب الفقهاء في الحكم على الحرف - تلك المذاهب التي جعلتهم يحكمون على عديد من الحرف بأنها "حرف دينية". ولا يخالجننا أقل شك في أن هؤلاء الفقهاء كانوا يعبرون عن عقلية ونفسية مجتمعاتهم، وما حفلت به من روااسب عصور الانحلال.. وليس عن وجهة نظر الإسلام.

وقد نقل لنا وجهة نظر الفقهاء كاتب معاصر هو الدكتور محمد رواس قلعجي في بحث موجز بعنوان "الاحتراف وآثاره في الفقه الإسلامي"<sup>(٢٥)</sup> فقال تحت عنوان "حصر الحرف الدنيئة" :

"لقد حرص الفقهاء على تحديد الحرف الدنيئة، ليبقى ما وراءها من الحرف شريفاً، فأول ما بدعوا به بيان تصورهم للحرفة الدنيئة فقالوا: الحرفة الدنيئة هي كل حرفة دلت ملابساتها على انحطاط المروءة وسقوط النفس، ثم راحوا يعتمدون على العرف في تعداد الحرف الدنيئة التي حكمت عليها أعراف عصرهم أنها حرف دنيئة.

- فذكر المالكية الحجام والزبال والحائك والفران والحمامي والشاعر الذي يمدح الناس في الأسواق والولائم ممن يتعاطون حرفاً دنيئة.

- وذكر الحنابلة الحائك والحجام والفصام - وهو الذي يجرح الجلد ليسيل منه الدم - والحارس والكساح - وهو الذي ينظف الألفية والكنف - والدباغ والحمامي والزبال والصباغ والصائغ والحداد ومؤجر الفحل للعبس - أي اللقاح - والماشطة - التي تتولى تزيين النساء - والنائحة والبلان - وهو قيم الحمام - والمزين والجرائحي - وهو الطبيب الجراح - والبيطار ممن يتعاطون حرفاً دنيئة.

- وذكر الشافعية الكناس والحجام والحارس والراعي وقيم الحمام (البلان) والفساد والهاقن - الذي يداوي الناس بالحقنة الشرجية - والقمام والقصار والزبال والكحال والدباغ والإسكاف والجزار والقصاب والسلاخ والجمال - الذي يسوق الجمال بالمراكب - والدلال - الذي ينادي على السلع - والحمال والحائك والملاح والجلاد والهراس - الذي ينادي على الهريسة ليبيعهما - والفوال والحداد والصواغ - هو الصائغ - والبيطار من الذين يتعاطون حرفاً دنيئة.

- وذكر الحنفية الحائك والحجام والكناس والدباغ والحلاق والبيطار والحداد والصفار - الذي ينظف الأواني النحاسية ويظلمها بالقصدير - والحارس والسائس والراعي وقيم الحمام والبواب والسواق - الذي يسوق الدابة بالراكب - والفراش - الذي يتولى تنظيف مفروشات المنزل ونحوه - والوقاد والمرضع التي احترفت الإرضاع بأجر، ممن يتعاطون حرفاً دنيئة.

\* وبذلك نرى أنهم اتفقوا على أن الحجام والزبال - ويقال له الكناس والكساح - والحائك والبلان ممن يتعاطون حرفاً دنيئة.

وأن المدقق في هذه الحرف يرى أنها اعتبرت حرفاً دنيئة للعلل التي سنذكرها إن شاء الله:

فالحجامة : - وهي مص الدم والقيح بالفم - كانت حرف دنيئة لمخالطة متعاطيها النجاسة.

والزبال : - وهو الذي يجمع أوساخ الناس وقمامات بيوتهم - كانت حرفته دنيئة لما فيها من مخالطة النجاسات، ومخالطة القاذورات، فضلاً عن أنها من الأعمال البهيمية التي يؤديها متعاطيها من غير فكر.

والحياكة : - كانت قديماً من الحرف الدنيئة لما يداخلها من الغش، فالحائك - في القديم - كان يرش الدقيق المذاب بالماء على القماش لستر به عيوب الحياكة، وليبدو النسيج جيداً، والثوب صفيحاً.

---

(٢٥) وقد طبعه ونشره المركز العالمي لأبحاث الاقتصاد الإسلامي - جامعة الملك عبد العزيز آل سعود جدة - الحجاز وأورد الكاتب في هوامش بحثه المراجع التي استمد منها هذه الأحكام من كتب الفقه المعتمدة مما لم نجد حاجة لإثباتها. (من ص ١٢ إلى ص ١٧).

والبلان : - وهو قيم الحمام - فإن حرفته اعتبرت دنيئة لما يقع فيه متعاطيها من إطلاع على عورات الناس في الحمام.

\* واتفقت المذاهب الثلاثة : الحنفي والشافعي والحنبلي على اعتبار حرفة الحراسة والحدادة والبيطرة والدباغة حرفا دنيئة.

وإن المدقق في هذه الحرف يرى أن الحراسة - والمراد بها الحراسة الخاصة أعني : حراسة شخص، لا الحراسة العامة التي هي جزء من مهام الدولة في الحفاظ على الأمن - اعتبرت حرفة دنيئة لما فيها من الخدمة المباشرة للأبدان من غير ضرورة، والتبعية الكاملة لشخص، وتقلص الشخصية، بل ذوبانها، وزوال عنصر الفكر، حتى لتصبح من الأعمال البهيمية.

وان الحدادة في ذلك العصر فيها من الاستقذار وتشويه الصورة - أي الوجه - بالسواد وبتن الرائحة ما تترفع عنه النفوس العالية.

وان البيطرة - في ذلك العصر - فيها الرضا بمخالطة الحيوانات وأبوالها وأرواثها.

وان الدباغة في ذلك العصر فيها مخالطة أهب الحيوانات الميتة النجسة.

\* واتفق الحنابلة والشافعية على اعتبار الصياغة والفسادة والصباغة حرفا دنيئة.

وقد اعتبر هؤلاء الصياغة من الحرف الدنيئة لأن الصياغ يصنعون حلي الذهب للرجال مما يساعدهم على ارتكاب الحرام.

أما الفسادة - وهي التداوي بشق الجلد وإسالة الدم من البدن - فلما فيها من أضعاف البدن، ومباشرة النجاسة - وهي الدم.

وأما الصباغة فلما يستعمله الصباغون - في ذلك العصر - في صناعتهم من الأبوال.

\* واتفق الحنفية والشافعية على اعتبار الرعي حرفة دنيئة.

ولعل السبب في ذلك أن متعاطيها يعمل عملا بهيميا خاليا من الفكر - هذا إذا خلت من التفكير الهادئ في مصالح الناس، وفي آلاء الله - ولأنه رضى أن يكون في خدمة البهيمة العجماء، وهي أدنى حالا من الإنسان الذي اعتبروا خدمة بدنه خدمة محضة من غير ضرورة حرفة دنيئة.

\* ونص الحنابلة على اعتبار النائحة والماشطة والجرائحي - الطبيب الجراح - وبيع عشب الفحل حرفا دنيئة.

ووجهة نظر الحنابلة في ذلك أن النائحة - وهي التي تبكي على الموتى وتندبهم بأجر - تتعاطى عملا نهى عنه الشارع الحكيم لقول رسول الله ﷺ (الميت يعذب في قبره بما نيح عليه) وعن أم عطية الأنصارية - وهي من المباعيات قالت : أخذ علينا رسول الله ﷺ في البيعة ألا ننوح.

وأن الماشطة - وهي المزينة - كانت تتعاطى ننف النص من الوجه وهو أمر نهى عنه الشارع لقول رسول الله ﷺ (لعن الله النامصة والمتممصنة).

وأن بيع عشب الفحل - أي تأجير الفحل للقاح نهى عنه الشارع الحكيم فقد روى جابر بن عبد الله قال : نهى رسول الله عليه وسلم عن ضرباب الجمل - أي ركوب الأنثى للوقاع.

وأن الجرائحي كالفصاد يخالط الدم وهو نجس.

\* ونص الحنفية على اعتبار السائس والسواق، والفراش، والبواب، والوقاد والصفار، والمرضع ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

### ووجهة نظرهم في ذلك :

أن السائس كالبيطار رضى أن يكون في خدمة جسد الحيوان، وهو يخالط أوبال الحيوان وأروائه، وهي نجسة.

وأن السواق – وهو الذي يركض وراء الدابة يسوقها بالرجل الراكب عليها – والفراش والبواب والمرضع وضعوا أنفسهم في خدمة أحياء آخرين – فهم يتعبون ليستريح غيرهم، ويشقون، ليسعد غيرهم من غير ضرورة ملحة لذلك.

وأن الوقاد – وهو الذي يمد النار بالقمامة ليذوم اشتعالها – يخالط الأقدار والنجاسات.

وأن الصفار – وهو الذي يجلو الأواني النحاسية ويظليها بالقصدير يقوم بحركات صبيانية مضحكة تجعل الصبيان يضحكون منه حين قيامه بعمله، وذلك أنه يحفر حفرة قليلة العمق قريبة من الجدار، ويضع فيها الوعاء النحاسي كالقدر الكبيرة مثلا ويقف هو في وسط القدر ويمسك الجدار بيديه ثم يبدأ بقذف جسمه بالاستدارة يمينا مرة، ويسارا مرة أخرى بخفة تثير الضحك.

\* ونص الشافعية على اعتبار الإسكاف والحمال والجلاد والهراس والملاح والدلال والقصار، والحاقد، والكحال – طيبب العيون – ممن يتعاطون حرفا دنيئة.

### ووجهة نظرهم في ذلك :

أن الحمال والملاح – وهو الذي يجدف بالمجاديف ليجري السفينة براكبيها – يتعاطيان حرف خدمة محضة. وكذلك الجلاد، إضافة إلى أن حرفة الجلاد تنزع ما بقى في قلبه من الرحمة، بل تجعله إنسانا منجرفا يسعد بتعذيب الآخرين.

وأن الإسكاف رضى بخدمة أذية الناس، مع أن خدمة أشخاصهم خدمة محضة تعتبر من الحرف الدنيئة، فما بالك إذا كانت الخدمة تباشر أذيتهم.

وأن الهراس – وهو بائع الهريسة – والدلال – وهو الذي ينادي على السلعة – اعتبرت حرفهم دنيئة لما فيها من رفع الصوت، فبائع الهريسة ينادي عليها – في ذلك العصر – بأعلى صوته، وبنغمة متميزة، وكذلك الدلال، وهذا فيه خفة بالنسبة إليهم.

وأن الحاقد – وهو الذي يطيب الناس بالحنقة الشرجية – لمعالجة احتباس الغائط – فلأنه كثير الإطلاع على عورات الناس.

وأما القصار والكحال فلم أدرك سببا لاعتبار حرفتهما حرفة دنيئة ولعله عرف قد ساد في فترة زمنية معينة. أو لأن كل قصار صباغ بالعادة، وقد تقدم الكلام في الصباغ.

\* ونص الحنابلة على اعتبار الفران والشاعر الذي يمدح الناس في الولائم والأسواق ممن يتعاطون حرفا دنيئة.



أما الفران : فلاشتهار الفرانين بأكل المال الحرام، فهم يسرقون من عجين الناس ليبيعوه خبزاً، ويصغرون الأرغفة ليزاد عددها لأنهم يأخذون الأجر على الرغيف.

وأما الشاعر الذي يمدح الناس في الولايم والأعراس تقرباً إليهم أو طمعاً في مالهم، فإنه دنئ النفس.

هذا ما أثار عن فقهاءنا - رحمهم الله تعالى - في الحرف الدنيئة نقلته عنهم بكل أمانة، مبيناً علة حكمهم على كل حرفة ذكروا أنها دنيئة. " انتهى

بهذا كاد الفقهاء أن يدخلوا معظم الحرف اليدوية في إطار "الحرف الدنيئة" وفاتهم أن النبي ﷺ فضل العمل اليدوي. وأنه قبل اليد التي مجلتها المسحاة قائلاً "هذه يد يحبها الله ورسوله" وأنه هو نفسه كان يخصف نعله ويقم بيته ويجمع الحطب، وأن مهنته، ومهنة موسى كانت الرعي. وأنه آسف لما علم بوفاة عجوز كانت تقم المسجد لأن هذا حال دون أن يصلي عليها. وأن مهنة داود كانت الحدادة ومهنة إدريس كانت الخياطة ومهنة نوح كانت النجارة وأن الصحابة والتابعين، وأئمة المذاهب، من علي بن أبي طالب حتى أحمد بن حنبل عملوا أعمالاً يدوية، بل اشتغلوا في حمل الأثقال! وأن أعلى أسماء في الأرسنقراطية القرشية الإسلامية: زينب بنت جحش وأسماء بنت عميس كانتا تقومان بالدبغ وبكثير مما ادخلوه في الحرف الدنيئة!

ولكن هذا القطع من الفقهاء لا يعد غريباً بعد أن ذهب بعضهم إلى أن "غزل الرجل إن كان على مثال غزل المرأة يكره ! لأنه تشبه بهن !".

فإذا كانت هذه المزاعم والآراء هي الآن تدين أصحابها بأنهم كانوا يحكمون بروح عصرهم، وبجزئيات لا قيمة لها إلا في حكم الصنعة الفقهية على حساب جوهر وروح الإسلام، فإن من الغريب أن نجد مؤلف رسالة "الاحتراف.." يجري على سنن هؤلاء الفقهاء فيصنف الحرف على أساس حرف للنساء وأخرى للرجال ذاهباً إلى أن "الأخذ بهذا التصنيف يؤدي عملياً إلى فصل النساء عن الرجال في العمل، فإذا كان عمل النساء غير عمل الرجال، فلا مبرر إذن لاختلاط الرجال بالنساء في العمل على الأقل، وبذلك يتحقق أروع انسجام بين النظم الإسلامية حيث يساند بعضها بعضاً ويساعد بعضها بعضاً على تحقيق أهدافه". وفات الباحث أن الإسلام لم يستهدف فصل النساء عن الرجال، بل لقد نهى النبي ﷺ عن منعهن من المساجد، وهو نهى لا يزال شجي في حلق الفقهاء ! وقد كان يخرج بهن في الأعياد، وكان من النساء من يشتركن في الحرب اشتراكاً فعلياً وأن النبي استجاب لمن أرادت أن تشترك في الغزو البحري مع الرجال فضلاً عن التمريض والعلاج. وأن مجتمع الآيات القرآنية لا يعرف الفصل بين الجنسين. فهو يشير إليهما بدون تمييز، وهو يفترض وجود النساء مع الرجال، وإلا لما أمر بغض النظر، وآداب الزينة. فالمؤلف، وإن نقد الفقهاء القدامى، فإنه سار على نهجهم في الاهتمام بالشكليات والمظاهر على حساب الحقائق والجوهريات..

إن هذا الحشف البالي كله الذي دفع به الفقهاء إلى مجال العمل أساء إلى قضية العمل، ولوث كثيراً من الحرف بوصمة "الدناءة" وكان في أصل ازدراء الناس للعمل اليدوي الذي كرمه الله وكرمه الرسول، ونحن اليوم نرفضه جملة وتفصيلاً وننبذ وراء ظهورنا ونضع نصب أعيننا تلك المعاني والقيم والتوجيهات التي نجدها في القرآن والصحيح الثابت من سنة الرسول - قولاً وعملاً.

## الفصل السادس حتى لا نفقد الابتسامة ...

اقتصر حديثنا حتى الآن عن مقومات ومضمون وأخلاقيات العمل في الإسلام، وما يفترض في هذه كلها، وما ينبغي لها، ولكننا نريد أن نشير إلى ناحية أخرى قلما يلحظها الكتاب والخبراء، وإن لحظها الأدباء والفنانون بحاستهم الفنية، تلك هي أنه في كثير من الحالات نجد العامل الأوروبي يعمل.. وعلى وجهه ابتسامة. إن الأمر لا يقتصر على الإتقان والإخلاص والمهارة، ولكن أيضا السعادة التي يحسها العامل عبر عمله وبفضله، سواء كانت هذه السعادة صادرة عن إحساس بخدمة الناس وتقديم شيء لهم يريحهم ويفيدهم أو لأنه يرضي في النفس حاسة أو جانبا معيناً. وفي الحالتين، فإن هذه السعادة تتجسم في ابتسامة يهديها العامل مع عمله.. وفوق عمله..

ولكي تكون الفكرة مفهومة. سأنقل هنا ملاحظات لكاتبين عن هذا الموضوع، أولها الدكتور حسين مؤنس الذي نشر في مجلة أكتوبر مقالا بعنوان "حكاية مدام عفاف"<sup>(٢٦)</sup> تحدث فيه عن تجربته مع السكرتيرات في أوروبا وأمريكا ومصر. ففي سنة ١٩٥٠ ذهب إلى جامعة بيل (الولايات المتحدة) أستاذا زائرا.. ولندعه يتحدث..

"كنا حوالي عشرة رجال ونساء أعضاء هيئة التدريس في قسم التاريخ. وكان للقسم سكرتيرة واحدة اسمها مسز نورما كارتن، كانت في منتصف الأربعينات من عمرها، وكانت وسيمة ورشيقة، ولها ولد وبنات في أوائل العشرينات..

ومسز كارتن كانت تقوم بأعمال السكرتارية لنا كلنا على نحو يدعو إلى الإعجاب، كنت لا تراها إلا في أنق صورة دون تكلف أو قصد. كنت تراها في ثياب رشيقة غاية في الحشمة. على وجهها ابتسامة لا تغيب، وفي نفسها طيبة جميلة، وأنت تأتي في الصباح وتطلب منها كل ما تريد : تملي عليها نصوص خطابيين أو ثلاثة وترجوها أن تحجز لزوجتك موعدا مع طبيب التوليد. وترسل زهورا إلى زميل لمناسبة عيد ميلاده، وتحجز لك تذكرة في قطار السابعة صباحا إلى نيويورك بعد غد مع الحجز في فندق كذا، وهي تسألك إن كنت ستحضر العشاء عند العميد في يوم كذا، وتبلغك أن الأستاذ فلان مريض في المستشفى ويستحسن أن تمر عليه. وتدخل إلى درسك وتلقي محاضرتك وتخرج لتجد أن كل شيء تمام على الطريقة الأمريكية لا المصيرية: خطاباتك جاهزة على التوقيع، وموعد الطبيب حجز، والزهور أرسلت، وتذكرة سكة الحديد حجزت وكذلك حجرتك في فندق ولنجتون وهذا هو رقم الغرفة، وهي تتصحك بأن تحضر العشاء عند العميد لأن السيدة حرم العميد لا تحب أن يعتذر أحد عن الاستقبال في بيتها..

(٢٦) العدد ٣٦٩ في ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣.

كنت أنا أقل مئونة من غيري لأن الآخرين كانوا يطلبون عشرات الأشياء وهي تقوم بكل المطالب في كفاية تملأ النفس بهجة وهي لا تنسى أن زوجتك اقترب ميعاد ولادتها، فهي تمر عليها في البيت لتذهب معها إلى المتاجر لشراء حاجات الطفل القادم.

وإلى حد بعيد كانت نورما كارتن الذراع اليمنى لعشرة رجال ونسائهم، وكان رئيس القسم مؤرخا عظيما ولكن مشاكله مع امرأته لا تنتهي، ونورما دائما هي الوسيط وقاضي الصلح".

ويستطرد الدكتور حسين مؤنس فيشير إلى سكرتيرته في باريس مدام سوزان أرفيو..

"هذه يا سيدي كانت في الثلاثينات، ولكنها كانت آية في الكفاية كانت تجيد الإنجليزية والفرنسية وتكتب الماكينة بسرعة ودقة وتأخذ أي رسالة بالاستينو أو الاختزال، وكانت تعرف كل شيء وتحل لك كل مشكل، وتعطيها فقط المذكرة فتكتبها لك أحسن كتابة وأبلغها. وتحجز الطائرة والفندق وتحافظ لك على حقوقك في المنظمة، ومن الثامنة صباحا تجدها في مكتبها وفي منتصف النهار تدعوك للغداء في الكافيتريا مع زوجها وابنتها. زوجها الطبيب يدعوك إلى مسرحية بديعة يمثلونها في الشاتليه. ومام أرفيو تتصحك في كل ما يتعلق بما تريد شراءه لزوجتك وأولادك. وهي تذكرك بموعدك مع طبيب العيون، ولا أذكر أنها نسيت مرة واحدة أن توصلني بسيارتها إلى المحطة الجوية (الأيرو جار) قرب الانفاليد، فإذا لم تستطع فهناك أبنيتها كارولين أو زوجها الدكتور روجيه أرفيو..

وإلى جانب ذلك كله فهي باريسية من شعرها إلى كعب حذائها : أنيقة رشيقة تلبس من عند ديور وشانيل وسكياباريلي وهيأتها تقول أنها لا تنسى أبدا مواعدها الأسبوعي مع قاعة التجميل أو الصالون دبوتيه. كل ذلك مع كمال وحشمة وأدب وظرف وحنان أنثوي عظيم".

وأخيرا عاد الدكتور حسين إلى الوطن واستقر به المقام كرئيس تحرير.. فجاءوا له - رغم أنه - بسكرتيرة "لهلوبة" كما ادعوا، هي مدام عفاف. ويأتي الدكتور إلى مكتبه حوالي الثامنة صباحا يكتب ويراجع..

"والساعة العاشرة تصل مدام عفاف وتبدأ يومها بخناقة مع الفراش الذي لم ينظف مكتبها والصوت يترامى إلي من بعيد وأرفع السماعة وأقول :

- وصلت يا مدام عفاف؟

- وصلت يا دكتور وسأتيك بعد دقيقة، بعد أن أجد لي حلا مع الفراش..

- إذن فواصليني بالأستاذ فلان في جريدة الجمهورية.

- وما رقمه يا دكتور؟

- يا مدام عندك دفتر التليفون وهناك عمال السوينش تصرفي. والله يا مدام عفاف فإن أماننا عملا كثيرا، وبعد أن تفرغي من تلك المكالمة تفضلي إلى مكتبي لأعطيك شيئا تكتبينه..

وبعد ثلث ساعة أطلبها فنقول أنها لا تصل إلى رقم جريدة الجمهورية فأستدعيها وأدعوها للجلوس وأطلب مكتب رئيس مجلس الإدارة وأحصل منه على أرقام كل الصحف وأناولها إياها وأقول :

- هكذا كنت أريد منك أن تتصرفي، فإن الإنسان ينبغي أن يعمل عقله. وكان ينبغي أن يخطر على بالك أن سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة لديها أرقام كل الصحف، والآن اعلمي لك دفتر عناوين مرتبا على الحروف الأبجدية ومن الآن فصاعدا تكتبين الأرقام التي تهمننا. والآن خذي هذا المقال واكتبيه على الماكينة.

وأخذت المقال ومضت، وبعد ساعة أذهب لأرى ماذا عملت فأجدها لم تكتب شيئاً.

- لماذا يا مدام..

- لا أستطيع أن اقرأ خطك.

- ولماذا لم تقولي ذلك من ساعة. انني أعرف أن خطي عسير بعض الشيء، ولكنك إذا عرفت بعض قواعده سهل عليك بعد ذلك. أعطني المقال لأراجعه وخذي هذا الكتاب وانسخي هذه الصفحة. وتأخذ الكتاب وأنظر فإذا بأختنا تكتب بإصبع واحد، وتأخذ في السطر دقيقتين فأقول:

- يا مدام عفاف، ألا تكتبين سبعين كلمة في الدقيقة؟.. هذا نص مطبوع.

- اكتب ولكني متعبة هذه الأيام..

وأبتين أن مدام عفاف حامل. وما دامت حاملاً فلا مجال لمطالبتها بأي عمل، فأخذ أوراقى وأقول لها :

- ما دام هذا هكذا فلماذا أخذت عمل السكرتارية ؟

- كل السكرتيرات هنا عملهن الوحيد هو التليفون..

وأفهمها الدكتور أن لب عمله هو كتابة المقالات على الآلة الكاتبة ومراجعة ردود القراء، وحاولت مدام عفاف.. وبالفعل تحسنت "ولكنها لم تستطع أبداً أن تتحكم في وقتها، كانت تعيش بعقلها وكيانها في بيتها وأولادها وبيتها قبل كل شيء. وزوجها لم يكن رجلاً مريحاً، ولكنه محور حياتها. أحياناً كانت تأتي بإبنها الصغير إلى المكتب والولد طول الوقت يجري في الممرات. وأحياناً أخرى كنت أراها تشتغل التريكو ولم أعد أهتم للأمر، ولو أنها أتت بالخضار لتعده في المكتب كما يقال إن غيرها يفعل لما أدهشني ذلك".

وقدم الدكتور يوسف إدريس صورة قريبة لما قدمه الدكتور حسين مؤنس، وإن عادت إلى الأيام المعاصرة، وليس إلى ثلاثين عاماً خلت، عندما تحدثت عن عاملة البوفيه في القطار السريع من باريس إلى مرسيليا الذي يسير بسرعة ٣٥٠ كيلو في الساعة.. فقال :

"البوفيه لا يقل عن الثلاثين شخصاً. تلبى طلباتهم جميعاً فتاة لم تكف عن الابتسام طوال الرحلة، ولم تكن ابتساماً واحدة ممطوطة وملصقة فوق ملامحها كالقناع الزائف، كانت ابتساماً متغيرة حقيقية، فهي تختلف إذا وجهتها إلى شاب في مثل سنها عنها إذا أجابت بها طفلة أو عجوزاً أو ضيفاً مثلي متعثر الفرنسية يطلب منها أن تتحدث في بطنه ليستطيع متابعتها. ظللت واقفاً فترة طويلة جداً أراقبها كيف تلبى طلبات الزبائن في لمح البصر بحيث يفرغ البوفيه ويمتلئ والطلبات لا تتوقف، وكذلك سرعتها في الاستجابة. ثلاث ساعات خدمت فيها ما يقرب من الثلاثمائة مسافر وابتسمت ثلاثمائة مرة، وضحكت عشرات المرات وكان واضحاً تماماً أنها سعيدة جداً بما تعمل. وهناك، حين أوشك البوفيه أن يفرغ، ولم يبق على مرسيليا إلا بضعة عشرات من الكيلو مترات وقفت في جانب من البوفيه، وتناولت حقيبة يدها، وأخرجت علبة سجائر، تناولت واحدة منها وأشعلتها، لأول مرة منذ أن بدأنا الرحلة. راقبتها وهي تدخن أيضاً. كان واضحاً أنها مدخنة عويصة، وأنا مدخن أيضاً ولكن لا أستطيع قوة في الوجود أن تبقيني لمدة ثلاث ساعات بلا تدخين. أكانت متعتها في العمل إذن أكبر بكثير من متعة المدخن بسيجارته." (٢٧)

ودهش الدكتور يوسف إدريس عندما علم أن مدة خدمتها في هذا القطار "رغم الهمة الرهيبة والنشاط الباسم والسعادة الحقيقية التي ترتسم على محياها وهي تعمل" هي شهر واحد بعدها يكون عليها أن تجد عملا آخر.. وعندما سألتها لماذا كنت تعملين بكل تلك الهمة والسعادة.. وأنت ستغادرين شركة القطارات السريعة بعد شهر ابتسمت وقالت "أنا أحبه" كأن العمل، مجرد العمل "حبيبها" وهي صورة لا تختلف في الجوهر عن سكرتيرات الدكتور حسين مؤنس، وتوفر الخدمة والابتسامة، حتى وإن كانت مهتزة شيئا ما بفعل ثلاثين عاما من التطور الكاسح.

ولو اتسع الحال لروينا حالات لا حصر لها عن خطابات يكتبها مرسلوها فيخطئون في الاسم، وفي رقم المنزل، واسم الشارع، ثم تصل إلى أصحابها بفضل تحري موظفي البريد ورغبتهم الصادقة في توصيل هذه الخطابات. ومثل طلبات النجدة بالتليفون التي يبذل العاملات فيها جهودا جبارة للاستجابة، ويواصلن متابعة الحالة.. وما إلى هذا كله مما يعكس التفاني في العمل والخدمة.. مع الابتسامة والتهديب وقد يصور ذلك ما كتبه الأستاذ أنيس منصور في عموده اليومي "مواقف" في جريدة الأهرام يوم ٦/٣/١٩٨٤.

"على الرغم من أنني لا أعرف اسم الكتاب الذي ذهبت أبحث عنه في مكتبة "جلوب" بواشنطن فقد حاولت البائعة أن تساعدني على ذلك فالكتاب طبي والموضوع هام، ولا أعرف إلا اسم المؤلف، حتى اسم المؤلف لم يكن دقيقا وكل ما تذكرته أن هذا المؤلف كان مريضا في إحدى المستشفيات. وأن زائرة أتت له بوردا، ظنا منها أنه أحد ممثلي المسلسلات التليفزيونية. وكان المريض الطبيب سعيدا بهذا الخطأ، ولم يشأ أن يصححه للزائرة المعجبة التي جعلت تتردد عليه في نهاية كل أسبوع وأحبها وأحبته، وتزوجا. وأن هذه القصة ظهرت على الشاشة فرفع أمره لقضاء وكسب القضية ومعها نصف مليون دولار!

واستمعت البائعة إلى هذه القصة، ولم تكن تعرفها، وفي التليفون سألت زميلة وزميلا لها، ولكن أحدا لم يعرف، وأخيرا راحت تقلب في دفتر التليفونات، وتحدثت إلى شبكات التليفزيون، وبعد عشر دقائق عرفت الاسم.

وشكرتها على الجهد الذي بذلته، ورغم أن طابورا طويلا من الزبائن يقف ورائي فلا هي تضايقت، ولا أحد من الواقفين، وإنما هي تعمل وهم يقدرون ذلك لأنهم يعملون مثلها بنفس الجدية والإخلاص.

ثم قدمت لي ورقة عليها عنوان المؤلف ورقم تليفونه ودار النشر وموعد صدور الكتاب.

ونظرت إلى الناس ورائي استأذن في دقيقة أخرى.

وسألتها : إذا كان من الممكن أن التقي بهذا المؤلف غدا أو بعد غد. فهزت رأسها، وقالت سوف أبعث إليك بعنوانه في الفندق الذي تنزل به. منتهى الإخلاص في العمل".

فإذا قارنا هذا بما عندنا، فقد يصور ما عندنا هذه الشكوى التي أرسلها قارئ إلى جريدة الأهرام ونشرتها الجريدة تحت عنوان "ربنا يهدك"!!<sup>(٢٨)</sup>

"لظروف قهرية اتصلت من السعودية برقم استعلامات تليفونات القاهرة في الرقم ٧٦٧٠٠٠ لأطلب رقم مستشفى الرمذ بأمبابة للاستفسار عن صحة إنسان أنا بعيد عنه، وعندما اتصلت ردت الموظفة، طلبت منها الرقم، فقالت حاضر أصبر شوية.. ربنا يهدك! فسكت وبعد فترة أعطتني رقم ٨٠٥٨٩٢، فشكرتها جدا

واتصلت بالرقم المذكور فلم يكن رقم مستشفى الرمد، فاتصلت بالاستعلامات مرة أخرى وردت نفس الموظفة المتخصصة على ما أظن في التهريج والكلام الفاضي الذي نسمعه ونحن على الخط صابرين في انتظار رحمتها، وبعد فترة قالت خد يا سيدي الرقم ٨١٠١٩٦ فاتصلت به وللأسف لم يكن هو أيضا الرقم الصحيح، وكان ذلك في يوم الأحد. فاتصلت بها في اليوم التالي لعل أعصابها تكون أهدأ وردت الموظفة، وقالت لها أرجوك أنا بأكملك من السعودية. فأعطتني رقم ٨١٠٢٧٠ واتصلت به فلم يكن هو أيضا الرقم الصحيح! فاتصلت يوم الثلاثاء وكلما سمعت الصوت سمعت منه نفس الكلمات طب حاضر، ثم انتظر على الخط ٥ أو ١٠ دقائق ويقفل الخط مرة واثنين وثلاثا، وكأني أطلب منها لبن العصفور! فلماذا يستهتر البعض بالآخرين هكذا.. لقد لقيت هذه المعاناة وأنا أطلب طلبا بسيطا هو مستشفى للسؤال عن مريض.. فهل هذا يليق !!؟

وعلق المحرر : لا .. لا يليق ولا يجوز أن نعامل بعضنا البعض بهذا الاستهتار المعيب ولا أعرف سر هذه الكلمات السوقية التي أصبحنا نسمعها من بعض موظفي مصالح الخدمات ومحلات القطاع العام، ولا سر هذا الاجترار السخيف على من يطلب حقه في الحصول على خدمة عامة فيقابل بعبارات من نوع "ربنا يهدك"، إنها ظاهرة مؤسفة تحتاج إلى الردع والعقاب.

ونعتقد أن هذه النبذة تمثل تمام التمثيل الأغلبية العظمى لصورة الخدمات في المجتمع المصري، فهناك البقية الباقية من الرغبة في العمل والخدمة، وهذه الرغبة تصطدم بعدم الدقة والمهارة وبالضيق النفسي وعدم الإجماع والاتفاق النهائي والمسلم به لما يجب أن يكون عليه التهذيب في المخاطبة والتعبير، وإن كان هذا لا ينفي وجود حالات مختلفة، ولكن تظل الأغلبية تمثلها الحالة التي استشهدنا بها..

وقد أعاد الدكتور حسين مؤنس والدكتور يوسف إدريس سوء الخدمة عندنا إلى المجتمع الذي حطم شخصية المرأة، وفرض عليها وصاية ثقيلة، وأبهط عائق العامل بالمشاكل والهموم والتعقيد بحيث لم يعد هناك مجال لظهور الابتسامة وسط التل المتعالي من الهموم والمشكلات.

ولا ريب أن للمجتمع آثاره على نفسية العاملين، ومن يقرأ تاريخ العمل يجد أن الدول الأوروبية عندما تعرضت لفترة الانتقال من الإنتاج اليدوي إلى الإنتاج الآلي، وما صاحب الثورة الصناعية من زعزعة للأوضاع القديمة المستقرة.. يعرف كيف أن عمل العمال تلك الفترة اتسم بصورة بالغة من الفجاجة والاستهتار والقصور وما اصطحب بحياة العمال من هموم ومشكلات، لا حصر لها نتيجة للاستغلال الرأسمالي وشبح البطالة الرهيب فضلا عن الجهالة الفاشية، وأن هذا كله دفع عمال بريطانيا إلى إيمان مشروب "الجن" الرخيص الذي كانت كمية منه ببضعة ملاليم تجعل العامل يغيب عن الوجود، وتعطيه فترة يهرب فيها من مجابهة الواقع المخيف، وبالطبع ففي مثل هذا المجتمع لم يكن ليتصور وجود سكرتيرات الدكتور حسين مؤنس أو عاملة بوفيه كعاملة بوفيه الدكتور يوسف إدريس. وتطلب الأمر مائتي سنة تقريبا قبل أن تستقر الأوضاع الاجتماعية بفضل جهود المئات والآلاف كل في ميدانه من دعاة إصلاح اجتماعي ومشرعين ونقابيين ورجال سياسة وإدارة وتربية وتعليم وصحة وكتاب وصحفيين وفنانين.. الخ، بحيث استقرت أوضاع العمل، وتخلصت من الأثياع والهموم، وارتفعت مستويات معيشة العمال وكفلت لهم الضمانات والحمايات. وأضيفت كرامة على شخصية الفرد رجلا أو امرأة، رئيسا أو مرؤسا وتقررت ورسخت آداب وانتظمت معاملات أفراد المجتمع بعضهم بعضا، وعندئذ فحسب بدأت تظهر الابتسامة.

بل يمكن القول إن هذا كله لم يكن كافيا، وإن كان هو الأساس، لأنه أتاح للعامل فرصة للاستمتاع بالحياة وقت الفراغ، وهذا الاستمتاع هو الذي يمسح عرق اليوم، ويذهب بالملل الذي لا بد وأن يزحف على العمل ويرخي الأعصاب المتوترة، ويعطي العامل نفسية متجددة، ومن هنا فإننا نجد أن الحياة الأوروبية قسمة ما بين العمل الجاد بالنهار.. واللهو الممتع بالليل فهذا الاستمتاع هو للنفس ما يكونه النوم للجسم يجدد أعصابه وينعش عضلاته، ويعوضها عما ذهب به تعب النهار..

وقد يكون عدم تنظيم وسائل اللهو والاستمتاع أمام العمال في المجتمع الإسلامي من أسباب هذا التوتر والجهامة التي تعلق الوجوه، أو الملل أو السلبية.. وكلها لا تدع مجالاً لابتسامة أو لبشاشة.

ودخل الحلبة عامل جديد هو ظهور "المحجبات المقطبات" في مجال العمل، وملاحظتنا الخاصة في هذا المجال تظهر نوعاً من الاقتراب ما بين الحجاب.. وما بين التجهم.. دع عنك الابتسام أو البشاشة، وتلك نقطة جدرة بالعناية حتى لا يساء فهم الأمر، أو يكون دعاية سيئة للحجاب نفسه.

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن الليل يجب أن يخصص لله تعالى يقوم فيه العبد ويتهدج، وهذا أمر - فيما نعتقد - مما لا يكلف به عامة الناس لأنه لا يدخل في إطار الفرائض، وقد كان الرسول ﷺ يأخذ مصلاه من المسجد ليصلي في غرفته ما يشاء من تطوع وتهجد، فعبر بذلك عن أن قرباته هي مما لا يكلف بها أو يقوى عليها عامة الناس وأي فرق أذن يكون بينهم وهم "القاعدة" العريضة.. وبينه وهو القمة التي لا مطلع وراءها.. ولا مبلغ بعدها، بل أن الرسول ﷺ أعلنها صريحة لصاحبه "ساعة.. وساعة..". وتقبل من أصحابه صنوفاً من اللهو بل كان يتيح لعائشة الاستمتاع ببعض صور اللهو التي كانت شائعة وقتئذ.. وأخيراً فيجب أن لا ننسى تلك الإشارة البليغة من الرسول " .. وتبسمك في وجه أخيك صدقة".

وبالطبع فإن عامل الاستمتاع ليس هو كل شيء، بل ليس هو العامل الأول، ولكن الإشارة إليه هي لعدم معالجته، والتخرج منه، وليس هناك حرج في الحق، أما العوامل الأخرى فمنها ما يدخل في اطمئنان العامل ورضاه بما يأخذ من أجر، أو يلقي من تقدير أو يطمئن إليه في مستقبله كما يدخل فيه المهارة وتنظيم العمل.. وعوامل أخرى عديدة.

وقد لا تكون الابتسامة عاملاً هاماً في مجالات العمل، ولكن لا ريب أنها عامل مريح، وأنها يمكن أن تحطم جو الغربة ما بين طرفي أي عملية، وأنها خاتم يتوج العلاقات الاجتماعية بطابع النجاح والاستقرار وأنها بعد كل شيء.. صدقة.. لا تكلف شيئاً.. وتنفذ إلى القلوب مباشرة.. وليس هذا بالشيء القليل.

# خاتمة

## العمل

### الوسيلة المثلى اليوم للجهاد في سبيل الله

رأينا في الفصل الأول من هذا الكتاب أن العمل هو مصداق الإيمان ومعيار الثواب والعقاب، وعالجنا في الفصول التالية جوانب أخرى له، ونريد أن نختم الموضوع بإبراز حقيقة هامة تلك هي أن العمل بالمعنى الشامل للكلمة – أي استدراك التخلف في الصناعة والتجارة والمهارات والعلوم والخدمات وإشاعة الثقافة والمعرفة التي هي في أصل هذا، ولا غناء عنها.. إنه الوسيلة المثلى والوحيدة الآن للجهاد في سبيل الله.

وإبراز هذه الحقيقة له أهمية مضاعفة، فبالإضافة إلى أهميتها الموضوعية، فهناك أهمية أخرى نشأت عن أن الصورة التي تستأثر بالشباب الإسلامي وتستحوذ على نفوسهم اليوم هي صورة الجهاد العسكري.. الذي يقوم به جيش كجيش الفتح الإسلامي الأول يحمل دعوة لا إله إلا الله محمد رسول الله إلى الناس كافة، فمن استجاب فهم أخوة "لهم ما لنا، وعليهم ما علينا" وإن رفضوا فالجزية يدفعونها عن يد وهم صاغرون. وإن رفضوا فالقتال الذي يظفر فيه المسلمون بإحدى الحسينين النصر أو الشهادة.

نقول إن هذه الصورة من الجهاد ليست هي الصورة الوحيدة، وليست هي الصورة المثلى.

ذلك لأن كلمة الجهاد أعم من كلمة القتال، فكل قتال يمكن أن يكون جهادا، ولكن ليس كل جهاد يمكن أن يكون قتالا. لأن اللفظة تعني المجاهدة مطلقا، سواء كان ذلك بالذات أو بالمال أو بالعمل أو بالسلاح أو بغير ذلك من الوسائل والأساليب.

من هنا قال النبي ﷺ للرجل الذي جاءه يستأذنه في الجهاد "أحي والداك" قال نعم قال "ففيهما فجاهد" ورد الرجل الآخر الذي قال له "جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي بيكيان" وقال له "ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما" وقال "أفضل الجهاد من قال كلمة حق عند سلطان جائر" وجمع بين حمزة – سيد الشهداء، ومثل هذا الرجل كما جمع في الشهادة بين من قتل في سبيل الله وبين من مات في سبيل الله، وتحدث عن "جهاد لا قتال فيه". وقال عمر لرجل ترك عمله الذي يرتزق منه وسافر إلى المدينة للجهاد "ارجع فإن عملا بالحق جهاد حسن"، وروي أنه بعث شعبان بن مالك ساعيا بالبصرة فمكث حينما ثم استأذنه في الجهاد، فقال عمر "أولست في جهاد.."

وهذا الفهم من الرسول ﷺ ومن عمر له أساسه من القرآن، فالقرآن يشير إلى الجهاد بما يوحي المجاهدة عامة ما دامت في سبيل الله، وفي معظم الحالات اقترن الجهاد بالمال، وقد يقدم القرآن ذلك على الجهاد بالنفس ﴿...وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ و ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ و ﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ الخ...



فكلمة جهاد تعني المجاهدة، أي بذل الجهد واستنفاد الطاقة في أي عمل صالح سواء كان إعالة أسرة أو ممارسة مهنة أو إنفاق للمال في وجوه مشروعة أو اتخاذ موقف من أبوين يريدان حمل ابنهما على الشرك أو حاكم يريد فرض الظلم على الناس أو غير ذلك من مواقف الكفاح بما في ذلك موقف العاشق المتعفف :

### يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأي جهاد غيرهن أريد

فهذا العمل.. والإنفاق والتورع من الوقوع في المآثم جهاد وما دام يراد به وجه الله فإنه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

ومن هنا فإن العمل المحكوم بالإسلام هو في حقيقة الحال جهاد في سبيل الله..

ولما كانت كلمة جهاد تعني - كما أشرنا - بذل الجهد - فإن العمل الذي ينطبق عليه وصف الجهاد يجب أن يكون عملاً متقناً يستنفد من صاحبه جهده ويستقرغ منه طاقته.. وليس العمل الرث أو الملقق.

وهذا العمل.. هذا الجهاد في سبيل الله هو المطلوب الآن بصورة أساسية، وهو - وليس القتال العسكري - سبيل الإنقاذ. (٢٩)

لماذا...

لأكثر من سبب. وبداية، فإذا أراد دعاة القتال والغزو أن يكفلوا لأنفسهم النصر، ولبلادهم المنعة فعليهم أن يركزوا اهتماماتهم في إحكام الصناعة، وإتقان المهارات والتغلغل في أسرار العلم الحديث.. باختصار "العمل"، لأن هذا هو سر التفوق العسكري. إلا أن انتصار البلدان الفقيرة على وجه التحديد، إنما يحققه في المقام الأول الجهاد داخل المجتمع. والصورة في هذا العصر للجهاد الداخلي تأخذ شكل التنظيم المنهجي في مجالات العمل العام. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي قدمه القرآن في بعض الآيات حتى على الإيمان بالله وإقامة الصلاة الخ.. إنما يتجلى في الهيئات والجمعيات التي يكونها المواطنون بدافع من إيمانهم لخدمة مجتمعهم في كل المجالات. إن المجتمع الذي يمارس مسؤولياته في جميع ميادين الحياة، بحرية وبكرامة، يكون قد أعدّ القاعدة التي يصعب قهرها.

سبب آخر لاستبعاد تلك الصورة الضيقة والخاصة من الجهاد - أي القتال - هي أن القتال حتى عند الانتصار لا يمكن أن يكفل الإيمان أو يكسب القلوب أو يجعل النفوس تتعاطف وتتجاوب مع العقيدة. فهل نحارب لكي نحصل على إسلام إجباري أو مذهري أو نضم ناساً يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم؟ وما قيمة هذا كله؟ لقد كان للقتال ضرورة في العصر القديم لأن وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري لم تكن متاحة ولم يتجاوب كسرى وقيصر مع الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ لهما، وحملهما فيها مسؤولية ضلال

(٢٩) إن استبعادنا للقتال كسبيل للدعوة الإسلامية، لا يعني بالطبع استبعاد القتال دفاعاً عن حرية العقيدة، كما كان أيام الرسول "وحتى لا تكون فتنة" ولا دفاعاً عن البلاد إذا هوجمت، أو دفاعاً عن استقلالها إذا كانت محتلة، فهذا القتال فرض مقدس وواجب على كل رجل وامرأة، وفي جميع الحالات فلا بد من أن يكون لكل بلدها جيشها، بل أن يكون أهلها كلهم على جانب كبير من التدريب العسكري ما دمنا نعيش في عصر "الغابة" الأوروبية.

جماهيرهما.. فلم يكن بدّ من أن يظهر الجيش الإسلامي بقضه وقضيضه، فالجهاد الإسلامي كان في حقيقة الحال الوسيلة التي اقتضتها الظروف وفتتد لتوصيل الدعوة، كان الجيش الإسلامي في حقيقته جيشا من نوع جديد لم يكن للبشرية به عهد من قبل، كان جيش دعاة قبل أن يكون جيش محاربين - جيش يحمل ﴿الكتاب﴾ و﴿الميزان﴾ أكثر مما يحمل السيف والسنان، ولو كان الغرض هو مجرد القتال، لما كان هناك داع للدعوة إلى الإسلام، وما يعنيه هذا من فقد المغانم والسيادة على الأرض. وهذه الدعوة إلى الإسلام ما كان يمكن أن تأخذ شكلها المباشر إلا بتحريك الجيش ودعوته الجماهير البعيدة عن موطن الدعوة الإسلامية. ولكن وسائل الإعلام والاتصال اليوم مكفولة، ويمكن أن تصل الجماهير في عقر دارها عن طريق الإذاعة والصحافة، وحتى لو كانوا في آخر الدنيا. فلماذا لا يدخر دعاة القتال جهودهم للدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبدأون بها ما دامت الدعوة مقدمة على القتال نفسه، ولا قتال قبل الدعوة إلى الإسلام. إن هذا على الأقل سيكسب للإسلام الألو، أو حتى مئات الألوف الذين يسلمون إيماننا واحتسابا واقتناعا، ولأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها..

**سبب ثالث :** هل من المعقول أن نحاول حمل دعوة الإسلام إلى بلاد بعيدة وجماهير جديدة.. وأن ندع - في الوقت نفسه جماهيرنا وشعوبنا نتخبط في ظلمات الجهالة والفهم السقيم للإسلام ؟ أفليس الأولى أن نبدأ بأنفسنا وأن نصلح مجتمعنا.. وهو عمل لا يريد حربا ولا قتالا.. ولكن تعليما وتفهما..

**لقد كنا في غنى عن تقديم هذه المبررات، بل ومعالجة تلك النقطة بأسرها - نقطة القتال، لولا أن معظم قيادات الدعوات عجزت عن أن تقدم للشباب الصورة السليمة للجهاد، وأن تترجم لها النصوص القديمة إلى لغة العصر. وأن تضع يدها أولا وقبل كل شيء على روح الإسلام والقضايا الجوهرية فيه، وأن نضع هذا الجسر لكي يتلاقى عليه فكر الإسلام مع ضرورات وملابسات العصر. فانحرفت الناشئة الإسلامية، وعادت إلى كلام أئمة وضعوا أفكارهم منذ عشرة قرون أو فهموا النص القرآني على هواهم أو كما فهمه الخوارج الأولون.**

وإذا كان الجهاد - كما يقولون - "فريضة محكمة دائمة لا يبطلها جور جائر.. ولا عدل عادل الخ.." وإذا استبعدنا الجهاد في صورة قتال لعقم أو لحماقة ذلك فما هي الصورة التي يأخذها الجهاد وماذا يكون مضمون هذا الجهاد..

**لا يخالجننا شك في أن الجهاد فعلا فريضة محكمة دائمة، ولكن بمعنى الوعي المتأجج في النفس برسالة الإسلام والالتزام بتحقيق المثل والقيم الإسلامية من عدالة أو مساواة أو تحرير.. أو كفاح للخروج من ظلمات الجهالة إلى نور العلم..، وبمعنى أن تظل في نفس المسلم دائما وأبدا فكرة المجاهدة للتغلب على العقبات ولقهر قوى القصور والنقص واستنفاد الجهد للوصول إلى الكمال.. وتحقيق العزة والكرامة.**

وإذا كانت مشكلة المجتمع الإسلامي اليوم، التي تفرض عليه الذلة والمهانة والتبعية، وتوقفه موقف المستجدي، وتجعله فقيرا ضعيفا معوزا في عصر الثروة والوفرة والقوة.. إذا كانت هذه المشكلة هي - بعد جهله لحقيقة دينه وجوهر إسلامه، هي التخلف في الصناعة والمهن والخدمات والزراعة والتجارة.. والتخلف

في الأداء وما يستوجبه من مهارات وإتقان وإخلاص... أفلا يكون العمل لاستدراك هذا كله جهادا في سبيلِ الله..؟

وفي التعبيرات المعاصرة يشيع استخدام تعبير "الثورة" كوسيلة للانتهاض والقضاء بأسلوب حاسم على هذه التراكمات والتعقيدات والإرث الثقيل. ويعزف كثير من المفكرين الإسلاميين عن تعبير "ثورة" لما نثيره من متداعيات بعيدة عن الإسلام فضلا عن الابتذال الشديد للكلمة. وفي التعبيرات الإسلامية البديل الأفضل والأمثل مبني ومعني.. الا وهو الجهاد.. لأن الجهاد الإسلامي بقدر ما يخلص من المتداعيات الكريهة لكلمة "ثورة" التي جاءت بها الممارسات الوحشية للثورات الأوروبية (الفرنسية - الشيوعية الخ..) والعسكرية في الدول العربية بقدر ما يقدم أفضل ما في مضمون الثورة، ولم يكن تروتسكي ليجد لثورته الدائمة ما يداني - فضلا عن أن يساوي - الجهاد الإسلامي..

وهكذا نصل إلى المضمون الجديد، والحقيقي للجهاد الإسلامي اليوم. إنه العمل - بكل كرامة وقوة ومجاهدة وإصرار لإخراج المجتمع الإسلامي من الظلمات إلى النور بإشاعة العلم والمعرفة والتدريب على المهارات.. وتحقيق خطط التنمية (عندما تكون سليمة) وجعل كلمة الله - العدل - أو الحق - هي العليا..

بذلك تتطلق مسيرة الجهاد الإسلامي اليوم كما انطلقت في عهد أبي بكر وعمر.. تحمل الكتاب والميزان.. فتنتشر العلم والمعرفة وما يستتبعه هذا أو يقوم عليه من صناعة وزراعة وتجارة ومهارة وخدمات وتوزع ثمرة هذا كله "بالعدل". وهذان هما الحسنيان في العمل الإسلامي : الوفرة.. والعدالة.. فالوفرة بدون عدالة تُظهر الترف والعدالة دون الوفرة تشيع الفاقة، ولكن الجهاد الإسلامي في صورة العمل.. يمكن أن يحقق الوفرة والعدالة.

وليس هناك من قربي إلى الله.. أفضل من هذا..

شيء أخير نقوله للهيئات والجماعات الإسلامية. إن ربط الجهاد بالعمل هو وحده الذي سيمكن الدعوة الإسلامية في الأرض وسيحول دون أن تكون - كما تقول عنها الصحف "التيار الديني" الذي يمكن أن يُستغل أو يُستقطب أو يتبدد أو يُنسى كما لو كان من مثاليات المراهقة أو حركات الطلبة العابرة.. أو انبعاثات المتطرفين. إن ربط الجهاد بالعمل سيعمق جذور الدعوة الإسلامية في المجتمع بحيث لا يمكن عزلها أو استقطابها، فضلا عن القضاء عليها، وسيعطيها شكلها "العملي" بحيث يعسر معه الانحراف والسير مع الأهواء والنزوات الطارئة..